

البحث عن شخصية مصر الحقيقية

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة حضارات مصر عبر التاريخ

البحث عن شخصية مصر الحقيقية

محمد يونس هاشم



دار نوبل للنشر والتوزيع

الكتاب : البحث عن شخصية مصر الحقيقية

المؤلف : محمد يونس هاشم

الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع ٤ شارع سيد الخطيب - الثلاثيني العمرانية الغربية - الجيزة

ت : ٠١٢٢٠٣٢٠٩٠٥ - ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١

الطبعة : ٢٠١٨

رقم الإيداع : ١٣٦١٤/ ٢٠١٨

الهيئة العامة للكتاب

الفهرسة أثناء النشر

هاشم ، محمد يونس

البحث عن شخصية مصر الحقيقية ، محمد يونس هاشم ، الجيزة دار نوبل للنشر والتوزيع ٢٠١٨

العنوان : ١٣٣ ص . ١٨ سم

رقم الإيداع : ١٣٦١٤

١- دراسات

٢- العنوان

ديوي ٩١٣

المقدمة

برغم أن الشعب المصري صاحب أوَّل وأعظم حضارة عرفتها البشريَّة ، ويكاد يكون الجنس البشريَّ الوحيد ، من أصحاب الحضارات الكبرى ، الذي حافظ على أكبر نسبة من نقاء جنسه ، وبقاء واستمرار سماته ، كما سنبيِّن ، إلا أن التيارات السياسيَّة والدينيَّة والنُّخب الثقافيَّة اختلفت اختلافاً بيِّناً حول تحديد هُويَّته !!

ولقد طال اختلاف هذه التيارات واشتدَّ صراعها ، ولم يفلح قرن كامل من الزمان ، أو يزيد ، في أن يوحِّد بينها في تحديد الهويَّة المصريَّة ، التي يجب التمسُّك بها والحفاظ عليها ، ولا في أن يجعل هذه التيارات تجتمع على الأهداف التي تطمح إليها ، ولا على النهج الذي تتوسَّل به إليها ، ولا حتى في أن يوحِّد نظرتها إلى التاريخ المصري المجيد !!

لقد تنازعت مصر في مطلع نهضتها الحديثة أربعة اتجاهات قوميَّة لم تستطع لأسف أن تتعايش فيما بينها بل كان كل واحد منها يرفض الآخر ويناصبه العداء .

وهذه الاتجاهات هي :

١- الاتجاه الإسلامي الذي كان ينادي بالارتباط بجامعة الشعوب الإسلاميَّة ، ويجعل العقيدة الدينيَّة محور التوجيه السياسيِّ ، والثقافيِّ .

٢- الاتجاه القبطي/ الفرعوني الذي يرى أن مصر تختلف بحكم أصلها وظروفها عمَّا يجاورها من الشعوب العربيَّة والإسلاميَّة وبالتالي يحصر نشاطها في مجالها الإقليميِّ الذي قد يمتدُّ ليعني وحدة وادي النيل .

٣- والاتجاه العربي الذي يركِّز على أن مصر جزء لا يتجزأ من الوطن العربي بحكم الأصل واللغة والمصالح والمشاعر والتاريخ وينبغي بالتالي أن تكون القوميَّة العربيَّة محوراً للفكر والسياسة . (١)

٤- الاتجاه الأورمتوسطي الذي يرى أن مصر جزء من شعوب البحر المتوسط، وأن عقليَّتها وشخصيَّتها أقرب إلى أوروبا منها إلى غيرها من الشعوب الشرقيَّة ، وينبغي بالتالي اتباع سَنَن أوروبا شبراً بشبر حتى لو سلكوا جحر ضبٍّ لسلكناه .

وكان لهذه الاتجاهات الأربعة تأثير واضح في النظرة إلى التاريخ المصري فالذين ينادون بالاتجاه الإسلاميِّ يركِّزون على تاريخ مصر الإسلاميَّة وثقافتها ويغفلون التاريخ المصريِّ القديم باعتباره تاريخاً وثنيَّاً يستنكر الدين ، وتاريخاً استبداديّاً يستنكر الشورى والعدل ويعممِّون شخصية فرعون ملك مصر زمن موسى عليه السلام على كل حكام مصر قبل أن يدخلها المسلمون ، كما أنهم يرفضون القوميَّة العربيَّة باعتبارها نزعة شعوبيَّة علمانيَّة تستنكِّر عالميَّة الإسلام ووحدة الأمَّة الإسلاميَّة وإن تباعدت أقطارها وتفرَّق أتباعها في مشارق الأرض ومغاربها .

---

(١) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلا" ص ٨ .

والـذين يتمـسَّكون بالاتجـاه القبطـي/ الفرعـوني يركِّـزون علـى تـاريخ مصر القديم وخصائص مصر الإقليميَّـة التـي تميزها عن سائر الأمم والـشعوب تلـك الخـصائص التـي مكَّنتهـا مـن بنـاء أوَّل حـضارة عرفهـا التـاريخ ، والتـي صـمدت أمـام غـارات المـستعمرين بدايـة مـن الهكسوس حتى الرومان ، وهم يعتبرون أن الفتح العربي احتلال استيطاني جاهد مـن أجـل اسـتبدال الشخـصيَّة العربيَّـة الإسـلاميَّة بالشخـصيَّة المـصريَّة المسيحيَّة ، وأن العرب قد نجحوا في تغيير هُويَّة مصر من فرعونيَّة إلى إسلاميَّة ، وأنَّ أقباط مصر وحدهم الذين ظلُّوا محافظين على الشخصيَّة المصريَّة الحقيقيَّة التي حاول العرب المسلمون محوها .

والذين يتحمَّسون لاتجاه القوميَّة العربيَّة يتجاوزون عن تاريخ مصر القديم وخصائص مصر الذاتيَّـة بدعوى أنهما يذكِّيان النزعة الإقليميَّـة الانفصاليَّة ويقلِّلون في نفس الوقت من أهمية العامل الديني باعتباره أنه لا يصلح أساساً للقوميَّة ، ويفتّشون في التّاريخ عمّا يؤكِّد الفكر القوميَّ لذلك لم يكن غريباً أن يركِّزوا على تجربة صلاح الدّين الأيوبي قديماً وتجربة محمد علي حديثاً، باعتبارهما الأصل التّاريخي لتجربة جمال عبد الناصر .

ويدعِّم هذا العرض الموجز لوجهات نظر التيارات السياسيَّة والفكريَّة والدينيَّة في تحديد مفهوم الهُويّة المصريَّة المتعدِّدة بتعدُّد تلك التيّارات الدَّلالة الرمزيَّة لعدم وجود مُتْحف قوميٍّ لمصر، في مقابلة " المُتْحف المصريِّ للآثار الفرعونيَّة " ، و"مُتْحف الفن الإسلاميِّ "، و" المُتْحف القبطيِّ "، و" المُتْحف اليونانيِّ/ الرومانيِّ "، و" مُتْحف النوبة "، إنَّها

مجموعة من الهويَّات السَّابحة في غير إطار يجمعها ويمزج بينها ومن هنا تكمن الخطورة .

ويرجع هذا بالأساس إلى استعارة نماذج تاريخيَّة في لحظات معيَّنة واستقطاعها من سياقها وتعميمها على " الكلِّ التاريخيِّ "، ما أدّى إلى نتائج كارثيّة على مفهوم الهويَّة، لأنّها قراءة مُبْتَسَرة مبنيَّة على أحادية تيَّار يحاول ادِّعاء احتكار الحقيقة، وهذا الاتهام مُوَجَّه لجميع التيارات الموجودة على السَّاحة السياسيَّة والفكريَّة في مصر مطلع القرن الواحد والعشرين .(١)

والحقيقة أن الشخصيَّة المصريَّة القديمة التي أبدعت الحضارة المصريَّة على غير مثال سابق كنهر النيل العظيم يجري منذ فجر التاريخ لا يتغير مساره ولا تنحرف وجهته ، وإن غذَّته روافد كثيرة ، وأعاقته جنادل وحشائش ضارة ، لكنه لم يضلَّ طريقه أبداً ولم ينضب عطاؤه قط ولم يغيِّر طعمه السلسبيل شيء ، وكذلك الشعب المصري العظيم عرف ثقافات كثيرة غذَّته ، وتعرَّض لغزوات كثيرة أعاقته وكبَّلته، ولكنه بقي كما هو لم يغيِّر مساره ولم يتخلَّ عن سماته الأصيلة ؛ فقد غزا كلَّ من غزوه وغيَّر سماتهم ولم يغيِّروه ، ومصَّرهم جميعاً ولم يستطيعوا أن يغرِّبوه أو يشرِّقوه .

إن الشخصيَّة المصريَّة بفضل قوَّتها ورسوخ سماتها وأصالتها قادرة على استيعاب الثقافة الوافدة إليها وهضمها وصبغها بصبغتها المصريَّة.

---

(١) حسن حافظ "سؤال الهويّة وسط تشظي الواقع السّياسي مصر نموذجا " ١٥ فبراير ٢٠١٣ بتصرُّف، موقع الأوان على شبكة المعلومات الدوليَة .

وهذا الكتاب ليس دعوة شيفونية (١) لتمجيد الشخصيَّة المصريَّة والتغنِّي بأمجادها إنما هو دراسة علميَّة تحاول فهم حقيقة الشخصيَّة المصريَّة ورفع التعارض بين الروافد التي غذَّتها واستفادت منها ، وإزالة العوائق التي تعيق مسيرتها ، وذلك من خلال الغوص في أعماق التاريخ المصري ؛ لكي نجيب عن هذه التساؤلات :

هل كان حكام مصر جميعاً طغاة متألِّهين ؟

ما حقيقة فرعون ؟ وهل هو اسم أم لقب ؟ وإن كان اسماً فمن يكون من ملوك مصر ؟ وما الأدلَّة الدينيَّة والتاريخيَّة والأثريَّة على ذلك ؟

ما علاقة المصريين باليونان والرومان قديماً ؟ وبالعرب المسلمين في العصور الوسطى ؟ وبأوربا حديثاً ؟

هل الشخصيَّة المصريَّة شخصيَّة أورمتوسطيَّة كما قال سلامة موسى وطه حسين وحسين فوزي ؟ أم أنها قوميَّة عربيَّة كما قال ساطع الحصري وجمال عبد الناصر ؟ أم أنها ولاية إسلاميَّة كما قال الأفغاني ومحمد عمارة؟

ما حقيقة الصراع بين دعاة الديانة القبطيَّة ؟ والجنسيَّة الإسلاميَّة ؟

ونحن في إجابتنا عن هذه التساؤلات وغيرها نذكر آراء أصحاب كل اتجاه بدقَّة وأمانة ، ونناقشها بكل حياديَّة ونزاهة ، لا نشكك في إخلاص انتماء كل صاحب رأي بل نشكر له اجتهاده في الوصول

---

(١) الشيفونية : الاستعلاء العنصري على سائر البشر كالنازية الألمانية ، والصهيونية اليهودية .

للحقيقة وإن ضلَّ طريقها فحسبه شرف المحاولة وإخلاص النية فلولا مجهود هؤلاء وغيرهم ما توصَّلنا إلي النتائج التي أرجو أن تحظي بالقبول .

* * *

صراعات فكرية حول هُويَّة مصر

كان النصف الأخير من القرن التاسع عشر في القارة الأوربية امتداداً لعصر الكشوف العلميَّة والنزعة الفكريَّة إلى التمرَّد على القديم ، وكان حقبة عامرة بأسباب القلق والاندفاع إلى المجهول حيثما وجد الطريق ، تمخضَّت عن أخطر مذاهب الفكر والأخلاق وادعاها إلى الثورة والانقلاب ، وهي على تفاوتها في كل ظاهرة من ظواهر السياسة والثقافة تشترك في خصلة واحدة لا تغيب عن واحدة منها في خبر من أخبارها وهي المطالبة بالحقوق والحريات.

في القارَّة الأوربيَّة حكم التاريخ حكمه بعد النزاع القائم بين السلطة الدينيَّة والسلطة السياسيَّة ، فوهم العلماء في مطلع الثقافة الحديثة أن هذه الثقافة حرب بين العلم والدين .

بداية عصر النهضة المصريَّة

إن الشرق لم يكن سريع الخطى في انتقاله من دور الجمود إلى دور الخلاص ، لأنه قضى نحو قرن كامل يجاذب بعضه بعضاً عن الطريق القويم بين من يحسبون أن الخلاص كله في اتباع الجديد على علاَّته ومن يحسبون أن هذا الخلاص مطلب بعيد المنال علينا إذا نحن لم ننبذ الجديد بقضِّه وقضيضه .

وفي مصر كانت حملة نابليون هي الصدمة التي خصتها بدروسها العاجلة ، وكانت دروساً محتومة لا تمهل المتعلِّم أن يتردَّد بين الجمود والحركة ، ونابليون لم يزحف على المماليك بجيش واحد بل بجيشين : جيش يحمل السلاح ، وجيش آخر من جماعة العلوم والفنون يحمل الكتب والأوراق .

وربما كان من بواعث إحياء الثقة بعد موتها ، ومن بواعث الإقبال على هذه العلوم الغربيَّة بعد نفور منها والإعراض عنها ، أن أذكياء البلد فهموا أنها "بضاعتنا رُدَّت إلينا " وأن الفرنسيين إنما أخذوا من علومنا في الشرق ما أهملناه وضيَّعناه فبلغوا به من القوة حديثاً مثل ما بلغناه قديماً ، ولا يزالون يبحثون عن المزيد ليبلغوا فوق ما بلغوا ، وقد فارقت الحملة الفرنسيَّة مصر ولم تفارقها فكرة التقدُّم العصري الذي سبق إليه القوم بعلوم ابتكروها أو بعلوم اقتبسوها منَّا ، وآن لنا أن نردُّها إلينا.(١)

ليس من شك في أن معرفة الذات، ووعي الهويَّة، وتوصيف الواقع شرط أساسي في قيام النهضة ونجاحها، وهو أمر بَدَهِيٌّ، وإلا فكيف ستكون هناك نهضة وهناك عمران دون معرفة تضاريس الواقع وسلبياته وإيجابياته؟ هذا ما تقوله تجارب الأمم، وتؤكّده قيادات الشعوب .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول النهضة المصرية راجع عباس محمود العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مكتبة مصر ، فصل " العصر " .

والآن إذا عدنا إلى بداية نهضتنا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، نجد اضطراباً واسعاً في تحديد هُويّتنا، وتوصيف واقعنا وشخصيتنا .

سؤالان حول النهضة

لقد توقَّف المثقفون والمفكِّرون ، إبان النهضة المصريَّة ، طويلاً حول سؤالين مهمَّين : من نحن ؟ وإلى أين نولِّي وجوهنا إذا أردنا النهضة ؟

واختلفت الإجابات بل تضاربت في تحديد الهُويَّة المصريَّة وبالتالي تحديد وجهة النهضة وسبيلها ، ويمكن رصد اتجاهات أربعة :

١- دعاة الجنسيَّة الإسلاميَّة .

٢- دعاة القبطيَّة / الفرعونيَّة .

٣- دعاة القوميَّة العربيَّة .

٤- دعاة الأورمتوسطيَّة .

هذه هي الاتجاهات الأربعة التي كان لها موقف من هُويَّة مصر وسبيل نهضتها والتي يتفرَّع منها اتجاهات أخرى فرعيَّة ، وسوف نتناول هذه الاتجاهات بشيء من التفصيل مستشهدين على دعاة كلِّ اتجاه بمواقفهم وأفكارهم .

***

مفهوم دعاة الإسلام للدين والهُويَّة المصريَّة

اتجاه علماء الدين الإسلامي الذين قالوا : إن مصر دولة إسلاميَّة ، وأن السبيل الوحيد لنهضتها ، واستعادة أمجادها هو العودة إلى الدين الإسلامي ، وهذا الاتجاه وإن اتفق على أن الإسلام هو سبيل النهضة إلا أنه اختلف حول مفهوم الإسلام والهويَّة إلى فريقين : السلفيَّة اللا أصوليَّة ، والسلفيَّة النهضويَّة .

موقف السلفيَّة اللا أصوليَّة من الدين والهويَّة

ونعني بالسلفية اللا أصوليَّة أتباع القديم الذين ينظرون إلى التراث نظرة تقديس، وهم لا يفرِّقون بين النص الديني المقدس (القرآن الكريم والحديث الشريف) وبين اجتهاد السلف في فهمه حسب علمهم والظرف التاريخي الذي عاشوا فيه ، فهم ينظرون إلى اجتهادات السلف كمقدس ديني لا يجوز العدول عنه فهو صالح لكلِّ زمان ومكان كالنص الديني تماماً . ويجعلون ما سواه بدعة وضلال ولا سيما إذا كان صادراً من بلاد الفرنجة بلاد الكفر والانحلال .

وبالنسبة للهُويَّة المصريَّة فإن أغلب هذا الفريق يقول بالجنسيَّة الإسلاميَّة ، فالإسلام ليس ديانة فحسب وإنما جنسيَّة أيضاً فتاريخ مصر لم يبدأ إلا مع الفتح العربي الإسلامي ، ولا انتماء إلا لهذا التاريخ

وليس ثمة اختلاف بين الشعوب الإسلاميَّة شرقيَّة أو غربيَّة فكلهم إخوان في الدين والهويَّة ، ولا تكاد تقيم وزناً لغير المسلمين في تلك البلاد فهم مجرد رعايا في بلاد الإسلام وليسوا مواطنين ! والمسلم الهندي والباكستاني والإندونيسي والتركي والشيشاني والبوسني المختلف جنسيَّةً ولغةً .. أقرب إليهم من أبناء وطنهم من غير المسلمين .

أما تاريخ مصر القديم فما هو إلا سلسلة متصلة من الكفر والجبروت ، وجميع حكام مصر قبل الإسلام كانوا فراعنة كفرعون ملك مصر زمن موسى ، والمصريون القدماء وإن كانوا أصحاب حضارة أصيلة إلا إنها حضارة قامت على الكفر وتسخير الشعوب التي كانت تعبد حكامها من دون الله ، وقد يعجبون وربما يسخرون من عظيم اهتمام الدول الغربيَّة بالحضارة المصريَّة القديمة وغيرها من الحضارات الشرقيَّة .

والخلاصة إن تاريخ مصر القديم لا يمثِّل عند أصحاب هذا الاتجاه إلا دلالة على قدرة الله تعالى على الانتقام من كل كافر طاغية !

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ٦- ١٤]

وهؤلاء كانوا متمرِّدين عُتاة جبَّارين، خارجين عن طاعة الله مكذِّبين لرسله، جاحدين لكتبه. فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبَرا .[١]

([1]) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٩٤

موقف السلفيَّة النهضويَّة من الدين والهُويَّة

أما الفريق الثاني في التيار الإسلامي فهو أتباع السلفية النهضوية (جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، ورشيد رضا) الذين وإن آمنوا أن الإسلام هو سبيل النهضة إلا أن فهمهم للإسلام فهم مختلف عن السلفيَّة اللا أصوليَّة فلم يكن هؤلاء الرواد مُنبتِّي الصلة بتراثهم الإسلامي وعلمائهم الأفذاذ بل رسخت أقدامهم في العلوم الإسلاميَّة ، واشرأبَّت أعناقهم لتطالع الجديد من العلوم العقليَّة والحكميَّة والطبيعيَّة التي برع فيها الغرب . فجمعوا بين الحسنيين : ثوابت الدين ، ومتغيِّرات العصر ، أو بين صحيح الدين ، وحقائق العلوم .

وكان أهم ما قام به جمال الدين الأفغاني ، رائد المدرسة السلفيَّة النهضويَّة ، هو اهتمامه الشديد بتربية تلاميذه على إيقاظ العقول واستيعاب العلوم العقليَّة النافعة ، ودراسة تاريخ الأمم وسياستها ، والاستفادة مما وصلت إليه العلوم الحديثة في أوروبا في مجالي : العلوم الحكميَّة ، والعلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة ، فإذا ما تمَّ لهم ذلك عرفوا كيف يفهمون دينهم فهماً صحيحاً دون الوقوع في تقليد الموروث القديم أو تقليد الوافد الدخيل إنما يأخذون من التراثِ الأصيلَ من المعرفة والثقافة، ويأخذون من علوم العصر النافعَ المفيدَ ، دون الوقوع في التقليد أو التغريب .

يقول رشيد رضا : " كانت طريقة الأزهر في التعليم قبل مجيء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر إلزام الطلبة قبول كل ما في كتب التدريس وما يقوله لهم المدرسون بالتسليم وعدم الاعتراض ، عقلوه أم لم

يعقلوه ، وطريقة الأستاذ الإمام (محمد عبده) التي استفادها من الأفغاني وجرى عليها بالدعوة وبالعمل في دروسه الدينيَّة والفنيَّة والعقليَّة أن لا يقبل أحد كلام أحد بالتسليم الأعمى ، بل يجب الفهم والاستدلال المؤدي إلى الإقناع والتفرقة بين كلام المعصوم وغير المعصوم ." [١]

الأفغاني والجامعة الإسلامية

وإذا كان الأفغاني قد رفع شعار " الجامعة الإسلاميَّة " ودعا إلى وحدة أمة الإسلام ، وترابط أوطان المسلمين ، وأقام في سبيل ذلك التنظيمات السياسيَّة والفكريَّة التي جسَّدت " الأمميَّة الإسلاميَّة " مثل : " جمعية العروة الوثقى " وأصدر لهذا الصحف والمجلات ، ومارس العمل في هذا الميدان حتى وافته المَنيَّة ، فلقد قدَّم لهذه " الجامعة الإسلاميَّة " تصوراً واقعيّاً عصريّاً راعى فيه التمايزات الوطنيَّة، والقطريَّة، والقوميَّة .. فتحدَّث عن : " اتصال أوطان الدول الإسلاميَّة في الأراضي ، واتحاد شعوبها في العقيدة فكلهم يجمعهم القرآن " ، ثم تسأل : " أليس لهم أن يتفقوا على الذَّب والإقدام كما اتفق عليهم سائر الأمم ؟!

ولوا اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم ؛ فالاتفاق في أصول دينهم " .

ثم مضى ليقول : " لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ؛ فإن هذا ربما كان عسيراً ، ولكنِّي أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكلُّ ذي ملك

(١) مجلة المنار ج ٣٢ ص ٦٧٣ .

على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ؛ فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه . إلا أن هذا يعد كونه أساساً لدينهم ، تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات " [١]

ودعاة السلفيَّة النهضويَّة رغم أنهم يدعون إلى إقامة جامعة إسلاميَّة تربط بلاد المسلمين بعضها البعض إلا أن تصورهم لهذه الجامعة تصور واقعيٌّ عصريٌّ يراعى فيه التمايزات الوطنيَّة، والقطريَّة ، والقوميَّة فهو أشبه باتحاد كنفدرالي [٢] لا وحدة اندماجيَّة أو فدراليَّة .

أما بخصوص تاريخ كل دولة قبل الفتح العربي الإسلامي فهو مَحَلُّ تقدير واحترام خاصة تاريخ مصر القديم العظيم ، فهم يحرصون بعض الحرص على قراءته ومشاهدة آثاره ومتابعة كلَّ جديد فيه سواءً أكانت اكتشافات أثريَّة أو دراسات عربيَّة أو أجنبيَّة .

نظام الدولة المصرية عند دعاة الجنسية الإسلامية

وهكذا ظهرت في بداية عصر النهضة المصريَّة هذه الأزمة حول الهُويَّة بين دعاة الجنسيَّة الإسلاميَّة ، الذين يعتقدون أن الإسلام ليس ديانة فحسب بل جنسيَّة أيضاً ، ويجب الاحتكام للشريعة الإسلاميَّة

---

(٢) د. محمد عمارة " الآثار الكاملة لجمال الدين الأفغاني " دار الشروق ص ٤٩ .

(١) الاتحاد الكنفدرالي (أو الكونفدرالي) هو رابطة أعضاؤها دول مستقلة ذات سيادة والتي تفوض بموجب اتفاق مسبق بعض الصلاحيات لهيئة أو هيئات مشتركة لتنسيق سياساتها في عدد من المجالات وذلك= =دون أن يشكل هذا التجمع دولة أو كياناً وإلا أصبح شكلاً آخرا يسمى بالفدرالية. الكنفدرالية تحترم مبدأ السيادة الدولية لأعضائها وفي نظر القانون الدولي تتشكل عبر اتفاقية لا تعدل إلا بإجماع أعضائها. ومن أبرز الكنفدراليات الحديثة الاتحاد الأوروبي .

وتطبيقها في كل شئون الحياة ، وفق فهمهم ، كما أنه يجب وفق هذا الفهم إسقاط كل جنسيَّة أو هُويَّة غير الإسلام فلا يُقَال مصر أو مصرية ، ولا قبط أو قبطيَّة . فكما أن الخلافة الراشدة كان جنسها الإسلام ولغتها العربيَّة ولا ذكر لحدود جغرافيَّة وأعراق جنسيَّة أخرى فكذلك يجب أن تكون الجامعة الإسلاميَّة وجميع الدول التي هي أعضاء فيها .

وعلى ذلك فبما أن مصر دولة إسلاميَّة فيجب أن يكون رئيسها مسلماً ، ودستورها إسلاميّاً ، وحكومتها مسلمة ، ومصلحتها إسلاميَّة ، ودواوينها إسلاميَّة ، وسياستها إسلاميَّة ، وهويتها إسلاميَّة ، ومناهج تعليمها إسلاميَّة ، ثقافتها إسلاميَّة ، والمسلم الأفغاني أو الباكستاني كالمسلم المصري في الحقوق والواجبات وهو مقدم على المصري غير المسلم ، فالناس رجلان مسلم وغير مسلم !! كما كان العرب يقسمون الناس إلى قسمين لا ثالث لهما : عربي ، وأعجمي .

ويثير استياء المنادين بالجنسيَّة الإسلاميَّة أن جرائد غير المسلمين أكبر تأثيرًا في الأمور العامَّة من جرائد المسلمين ، وكذلك النفوذ السياسي والمالي بالرغم أن غير المسلمين أغيار أقليَّة كالنقطة السوداء في الثور الأبيض ! ومَردُّ هذا بزعمهم يرجع إلى غفلة المسلمين ، ودعم الاحتلال الإنجليزي ، والتأييد الأمريكي لهؤلاء الأغيار.

***

مفهوم دعاة القبطيَّة ديناً وجنسياً

دعاة القبطية / الفرعونية

الاتجاه الثاني الذي ظهر إبان النهضة المصريَّة في بداية القرن العشرين وربما ظهر كرِّد فعل لدعاة الجنسيَّة الإسلاميَّة هو دعاة القبطيَّة /الفرعونيَّة .

وهذا الاتجاه يرى إن مسيحيي مصر هم السكان الأصليون لهذه البلاد فهم من نسل الفراعنة ، وأن كلمة " قبط " لا تعني فقط جنسيَّة إنما هي ديانة أيضاً فكلمة قبطي تعني كل إنسان مصري الجنسيَّة مسيحي الديانة أما المسلمون فهم عرب ، غير مصريين ، غزاة مستوطنون ؛ لذا ينبغي إلا يُصْبَغ أي شيء في إدارة البلاد بالصبغة الإسلاميَّة، كما يدعو دعاة الجنسيَّة الإسلاميَّة ، فلا يكون دستور البلاد دستوراً إسلاميّاً وإنما دستور مصري يراعي في المقام الأول حقوق القبط، كذلك الحكومة التي تدير البلاد لا بد أن تكون قبطيَّة وتراعي مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة ، وإذا كان المسلمون يستقوون عليهم بكثرة عددهم وأن الحاكم منهم فإنهم يستقوون على المسلمين بالاحتلال الغربي والتأييد الأمريكي ، والتعاطف الأوروبي المسيحي .

يقول الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني : " الأقباط هم بقايا تلك الأمَّة المصريَّة العريقة في الحضارة التي أجمع الكلُّ على إنها أقدم الأمم في المدينة وأسبقها إلى التمدن . وقد شهدت التواريخ على إنها هي السبب الوحيد والعامل الأكيد على إيجاد التمدُّن في العالم وانتشاره على وجه البسيطة " (١)

ويقول أ. ل . بتشر : " تاريخ هذه الأمَّة ممتزج من أوله لآخره بأقوام كثيرة مختلفة أغارت على البلاد وملكتها من رومان وأروام وعرب وأكراد وشراكسة وأتراك وغيرهم وهم الذين أذلُّوا المصريين وجعلوا بلادهم مستباحة لهم . ولقد أسفر بحث الباحثين المدقِّقين عن أن أعقاب المصريين الأصليين الباقيين إلى الآن هم الأقباط المسيحيون لا المسلمون ، وهم الذين عانيت أنا عناءً كثيراً وشغل متواصل بوضع هذا التاريخ الوافي عنهم ليسهِّل على القُرَّاء معرفة أصلهم ونسبهم وديانتهم بدون تعب . " (٢)

مفهوم الدولة المصرية عند دعاة الجنسية القبطية

وفي مقابل دعاة الجنسية الإسلامية يصرُّ بعض المسيحيين على جعل القبطيَّة ليست جنسيَّة فحسب يشترك فيها معهم المصريون المسلمون إنما ديانة أيضاً وهي خاصة بهم دون سواهم ، فهم وحدهم الأقباط ديناً وجنسيَّة وأنهم وحدهم من نسل المصريين القدماء وما

(1) الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني " وطنيَّة الكنيسة القبطيَّة وتاريخها " سبتمبر ٢٠٠٤م ص ١٠

(2) أ. ل . بتشر " تاريخ الأمَّة القبطيَّة " طبع على نفقة صاحب جريدة مصر بمطبعة مصر بالفجالة سنة ١٩٠٠م ص (أ) .

عاداهم غزاة دخلاء ؛ فمصر فرعونيَّة أو قبطيَّة وأبناؤه الأصليون هم القبط (المسيحيون) وتاريخهم الذي يفاخرون به التاريخ الفرعوني والقبطي لا الإسلامي العربي ، ودستور مصر يجب أن يراعي الهوية القبطيَّة فيدغم المسلمين في القبط ، والحكومة يجب أن تكون قبطيَّة ، ومجلس التشريع يجب أن يكون قبطيّاً ، كذلك تكون الإجازة الأسبوعيَّة يوم الأحد ، والديانة التي تدرَّس لطلاب المدارس هي المسيحية ...

وقبل أن نردَّ دعاة الجنسية الإسلامية ، والجنسية القبطية نذَّكر بتلك الفتنة التي حدثت في بداية القرن العشرين وتحديداً في العقد الأول منه والتي كشفت عن الدعوة إلى الجنسيَّة الإسلاميَّة والديانة القبطيَّة .

فتنة مقتل بطرس غالي باشا

كان بطرس باشا نيروز غالي (١٨٤٦– ٢٠ فبراير ١٩١٠) رئيس وزراء مصر من ١٢ نوفمبر ١٩٠٨ إلى ١٩١٠ ، وبصفته رئيساً للوزراء وافق على تمديد امتياز شركة قناة السويس ٤٠ عاماً إضافيَّة من ١٩٦٨ إلى ٢٠٠٨م في نظير ٤ مليون جنيه تدفع على أربعة أقساط .

وقد قام إبراهيم الورداني باغتيال بطرس غالي أمام وزارة الحقانيَّة في الساعة الواحدة ظهراً يوم٢٠ فبراير ١٩١٠م ، حيث أطلق عليه الورداني ست رصاصات أصابت اثنتان منها رقبته.

كان اغتيال بطرس غالي هو أول جريمة اغتيال في مصر الحديثة، وكان متزامناً مع نظر الجمعيَّة العموميَّة لمشروع مد امتياز قناة السويس، واعترف الورداني بقيامه بقتل بطرس غالي؛ لأنه في نظره

"خائن" بسبب اتفاقية الحكم الثنائي الإنجليزي المصري للسودان عام ١٨٩٩، ومشروع قانون مد امتياز قناة السويس، ورئاسته لمحكمة دنشواي التي قضت بإعدام ٦ فلاحين مصريين قتلوا جنوداً بريطانيين كانوا قد قتلوا فلاحة مصرية أثناء صيدهم للحمام ، وإصداره قراراً بإعادة العمل بقانون المطبوعات الصادر في عهد الخديوي توفيق، وكان الهدف منه مراقبة الصحف ومصادرتها وإغلاقها إذا اقتضى الأمر، وكان هذا القانون قد صدر لوضع القيود على الأقلام .

فحدثت فتنة طائفيَّة بسبب اغتيال بطرس غالي نادى فيها بعض المسلمين بالجنسيَّة الإسلاميَّة ، ونادى فيها بعض المسيحيين بالديانة القبطيَّة .

يقول رشيد رضا عن هذه الفتنة في عدد مارس سنة ١٩١١م من مجلة المنار : " فعل الورداني فعلته ، فحُكِمَ عليه بالإعدام فأُعْدِم شنقًا ، كَبُرَ الخطب على القِبْط (يقصد المسيحيين) وحقَّ لهم ذلك . ولكن المسلمين لم يُقصِّروا في مشاركتهم في كل شيء من تشنيع الجناية ، وتشييع الجنازة ، وتأبين الفقيد ورثائه ، بما لم يرثوا ولم يُؤبِّنُوا بمثله وزيرًا مسلمًا من قبله ، اشترك في ذلك أمراؤهم وعلماؤهم ، وكتَّابهم وشعرائهم، ورجال الحكومة من جميع الطبقات ؛ فقد كان الفقيد رئيسًا لهم.

كلُّ ذلك لم يرضِ القبط ، بل أرادوا أن يأخذوا مسلمي القطر كافة بذنب الورداني ، فطفقوا يكتبون ويستكتبون بعض المتعصبين من المشاركين لهم في الدين باتهام المسلمين بالتعصُّب الديني ، وجعل الجناية اعتداء من الدين الإسلامي على الدين المسيحي وأهله ؛

لاعتقادهم أن هذا هو محل الضعف من المسلمين ، وموضع التأثير في تهيج الإنجليز وسائر الأوربيين عليهم ؛ لاتفاق الجميع على أن لا يتركوا للمسلمين شيئًا من المقوِّمات ولا من المشخصات المِلِّيَّة .

قابل المسلمون كل هذا العدوان بالحِلم ، فاستضعفهم القبط وأسرفوا في الطعن والقدح في جرائدهم ، وأوفدوا إلى إنجلترا من ينوب عنهم في إقناع الجرائد الإنجليزيَّة والنواب الإنجليز ورجال الدين والحكومة في لندن ؛ بأن القبط مظلومون مغبونون في مصر لأجل دينهم ووالوا ذلك ، وأدمنوه سنة كاملة ، احتفلوا في خاتمتها بذكرى فقيدهم العظيم (بطرس غالي) وكان يظن أن المسلمين لا يشاركونهم في هذا الاحتفال بعد تلك الغارة الشعواء في جريدتي الوطن ومصر على الكتب العربيَّة والآداب العربيَّة والديانة العربيَّة (الإسلاميَّة) ، ولكن المسلمين كذَّبوا الظن ، فهرع علماؤهم وكبراؤهم إلى مدفن الفقيد وكنيسة طائفته ، وأبَّنُوه بالنثر والنظم وأطروه أشد الإطراء ، فكان من اللائق المعقول أن تقف القبط عند هذا الحد من الظفر ، وتواتي طلاب الصلح من المسلمين الذين اعتذروا عما كتبه القبط من سوء القول ؛ بأنه رأي أفراد منهم لا يؤخذونهم بشذوذهم فيه .

المؤتمر القبطي ١٩١١م وتأثيره

لو كان للقبط زعيم عاقل – والكلام مازال لرشيد رضا – كذلك الزعيم الذي فقدوه ، لما سمح لهم بذلك التَّقَحُّم الذي تقحَّمُوه ، ولو كان لهم زعيم له نصف عقله وحكمته ، لأوقفهم عند الحد الذي انتهى به الحول بعد مصرعه ، ولكنهم بعد انتهاء الحول ، وبعد تلك المجاملة من

المسلمين في الاحتفال التي عدَّها المتزاحمون على الزعامه فيهم ضعفًا ومهانة ، انبروا إلى تصديق أقوال جرائدهم بالعمل ، فألَّفوا مؤتمرًا قبطيًّا عامًّا في أسيوط التي سماها بعضهم (عاصمة القبط) لإثبات الغبن الذي أصابهم وبيان المطالب القبطيَّة التي يريدون بها مساواة المسلمين، وأولها : أن تسمح الحكومة للموظفين منهم بترك العمل يوم الأحد ، وتسمح للتلاميذ منهم في مدارسها بترك الدراسة فيه أيضًا ؛ لأن دينهم يحرِّم عليهم العمل فيه .

توالى الوخز والطعن على جسم الشعب الإسلامي مدة سنه كاملة ، فلم يكد يشعر به ولا استيقظ من منامه ، فلما سمع صيحة المؤتمر القبطي الشديدة المؤلفة من أصوات الألوف من الشاكين ، هب من نومه مذعورًا ، فرأى أن الجسم الصغير الذي كان يعدُّه عضوًا منه قد انفصل وصار حيًّا بنفسه ، ممتازًا بمقومات ومشخصات خاصَّه به ، سماها (قبطيَّة) ، وسمى ما بقي للجسم الكبير من المقاومات والمشخصات (إسلاميَّة) ، وهو يريد أن ينتزعها كلها منه ، ويجعله تابعًا له عملاً بقاعدة { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً } (البقرة : ٢٤٩) فعزَّ عليه ذلك ، واستعد للدفاع عن نفسه .

نعم .. رأى المسلمون أن البلاد بلادهم ، والحكومة حكومتهم ، والشريعة شريعتهم ، وأن غيرهم لم يكن له في مصر وجود حتى يكون له حقوق يؤبه لها ؛ لأن هؤلاء الأغيار كالنقطة السوداء في الثور الأبيض أو النقطة البيضاء في الثور الأسود . ولكنهم بتساهلهم وإهمالهم قد شاركوا هؤلاء الأغيار في حكومتهم وفي جميع مصالحهم

العامَّة والخاصَّة ، حتى صارت إدارة أملاكهم وعقاراتهم وأوقافهم الأهليَّة كلها بأيدي أولئك الأغيار .

ثم أرادهم أولئك الأغيار على أن لا يذكروا اسم الإسلام والإسلاميَّة في أمور الحكومة ولا غيرها من المصالح العامة ؛ لأن ذلك ينافي المدنيَّة العصريَّة ، فرضوا ، وصاروا يترنَّمون باسم الوطنيَّة والمصريَّة ، ويقولون : نحن مصريون قبل كل شيء ، ويعدون المسلم غير المصري دخيلاً بينهم.

بل رأوا أنهم قد انجذبوا إلى القبطيَّة ، وصاروا يفخرون في جرائدهم وخطبهم وأشعارهم بفرعون الذي لعنه الله تعالى على لسان موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، وأخبر تعالى أنه استخفَّ قومه فأطاعوه ، واستعبدهم واستذلهم، وكان من أغرب ما وقع في هذا الباب أن شاعرًا مسلمًا نظم قصيدة في عيد السنة الهجريَّة ، وأنشدها في احتفال عظيم ، فافتخر فيها بأنه هو وقومه من آل فرعون ، ولم يفتخر بالنسبة إلى صاحب الهجرة الشريفة ، ولا بآله وأصحابه الذين يفتخر بهم الوجود ﷺ ورضي عنهم أجمعين ، فكيف تجمعون أيها المفتخرون بآل فرعون بين هذا الفخر وبين قول ربكم فيكم : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُواً وَعَشِياً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] .

بل رأى هؤلاء الذين استيقظوا من المسلمين أن مقومات حياتهم المعنوية التي هم بها أمَّة ؛ قد تزلزل بعضها وزال بعض ، فصارت السلطة التشريعيَّة في بلادهم بأيدي الأغيار والنفوذ الأدبي في أيديهم ،

حتى إن مجموع جرائدهم أكبر تأثيرًا في الأمور العامَّة من جرائد المسلمين ، وكذلك النفوذ السياسي والمالي ، فثروة المسلمين كل يوم في نقصان كما يعلم كل يوم من إعلانات الحجز وبيع الأملاك المرهونة .

رأوا هذا وأمثاله مما لا يحل لإحصائه هنا ، فعلموا أن الذي أطمع هذه الشرذمة من القبط فيهم ليس بالشيء اليسير ، وإنما هو انحلال جميع روابطهم ، وزلزال أو زوال جميع مقوماتهم ومشخصاتهم ، حتى إنه لم يعد أحد منهم يجسر على أن يقول حكومة إسلاميَّة أو مصلحة إسلاميَّة ، فعلموا أنهم صاروا عرضة للعدم والانقراض ، أو الإدغام في القبط ، كما أدغم القبط فيهم من قبل ، بل رأوا أن القبط قد غلوا وأسرفوا في الطمع فيهم ، حتى لم يرضوا بما كانوا سائرين إليه من الفناء فيهم باسم مصريين ، وأبوا إلا أن يكون لهم كل شيء بلقب قبط .

والأمم تهتم في طور الضعف بالألقاب والأسماء ما لا تهتم بالمعاني ، فقد يمرق المسلم أو النصراني من دينه بالفعل ، ويبقى محافظًا على الاسم ، لذلك حكمنا بأن القبط قد غلوا وأسرفوا في حركتهم الأخيرة ، وأنهم لو صبروا لنالوا في غفلة المسلمين وتخاذلهم كل ما يؤملون ، وإن سبب ذلك هو فقد الزعيم وإعواز خلف له .

فهذه الحركة لا يعقل أن تكون مؤدية إلى المطلوب إلا إذا كانت مبنيَّة على وعد قاطع من السلطة الإنجليزيَّة الفعالة ، وهو ما يظنه بعض الناس ، وإن قال فيهم العميد وقالوا فيه ما يدل على خلاف ذلك، وأما مساعدة قسوس الإنجليز والأمريكان ، فليست كافية إذا استيقظ المسلمون ، وعارضوا بالحكمة والعقل .

مطالب دعاة الجنسية القبطية

ويكمل رشيد رضا قائلاً : " يقول بعض المموِّهين : إن هذه الحركة القبطيَّة ليست دينيَّة ، بل هي طائفية جنسيَّة ، يختلبون (يخدعون) المسلمين بهذا ، والمسلمون يردُّون عليهم من كلامهم (من فمك أدينك) فإنهم يقولون : إن السواد الأعظم من المصريين قبط ، فما الذي تمتاز به هذه الخمسة أو الستة من المئة على الباقي وأكثره من القبط ، كما يقولون ؟ هل هنالك غير الدين ؟ ألم يصرِّحوا بأنه هو علَّة حرمانهم مما يطلبون ؟ ألم يحرِّضوا قسوس إنجلترا وجرائدها ، ويطلبوا نجدتها باسم الدين ؟ ألم يكن أوَّل مطالبهم ترك أعمال الحكومة في يوم الأحد عملاً بالدين ؟ إلا أنه من سوء الحظ أو حسنه أن كان القبط ليس لهم لغة ، وإذاً لحاربوا المسلمين بلغتهم ، وكانوا بحزمهم ومساعدة الإفرنج وغيرهم هم الغالبين ، ولم يكن لأحد عذر في كلمة إسلام أو مسلمين.

إذا كانت القبطية جنسيَّة للقبط المسيحيين خاصة ، فأجدر بالإسلام أن يكون جنسيَّة للمسلمين عامَّة ، فإن المسيحيَّة قد فصلت الحكومة من الدين كما يقولون ، وأمرت أن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

والإسلام ذو شريعة وسياسة ، فما بال الذين يأمرهم دينهم بالخضوع لكلِّ حاكم وإن كان وثنيًّا كقيصر الروم في زمن المسيح عليه السلام ، قد أصيبوا بهذا الشره في السياسة ، فلا يتبعون حاكم مصر المسلم في بطالة يوم الجمعة دون يوم الأحد وما بال المسلمين قد أجابوا دعوة غيرهم ، فرضي حاكمهم ومحكومهم بأمور كثيرة مخالفة للشريعة في حكومتهم ؟

إذا كان القبط لا يشتغلون يوم الأحد في حكومة الحاج عباس حلمي المسلم [1] فيلتركوها ويستغنوا عنها تنسكًا وتعبدًا ، وإلا فالمسلمون أجدر منهم بطلب جعل كل شيء في هذه الحكومة موافقاً لدينهم ؛ لأن الحاكم العام منهم ؛ ولأن أكثر الأحكام تقع عليهم ؛ لأنهم أكثر من تسعين في المئة من الأمة ، فلهم أن يقولوا : إننا لا نخضع لحكم يحرم علينا وجداننا الخضوع له ، ولماذا ينكر الأغيار عليهم ذلك ويسمونه تعصبًا، وإنما أولئك الأغيار هم المتعصبون الذين يفتئتون على أمة مسلمة حاكمها العام مسلم ، ولا يسمحون لها أن توفق بين دينها وحكومتها .

يقول بعضهم : إن هذه حكومتنا وحكومة آبائنا وأجدادنا .

ويقول بعض آخر : إن لنا حق مساواة المسلمين فيها .

والصواب أن الحكومة ليست حكومتهم وأنه لا حق لهم فيها ألبتَّه ولا لغيرهم ، ولماذا ؟ **إن هذه البلاد عثمانيَّة سيدها الحقيقي سلطان المسلمين وخليفتهم** ، وقد فوَّض أمر إدارتها إلى محمد علي باشا وذريَّته على قاعدة مخصوصة، اعترفت بها دول أوربا الكبرى ، وهي كما قال اللورد كرومر لم تكن محل خلاف ولا نزاع قط ، وقد كان يكتب على أوراق الحكومة (الحكومة المصريَّة) .

وأخيرًا صار يطبع عليها بالعربيَّة (الحكومة الخديويَّة) نسبة إلى شخص الخديوي ، وبالإنجليزيَّة حروف معناها (في خدمة سموُّه) ، فهذه

---

(١) عباس حلمي الثاني بن محمد توفيق بن إسماعيل(١٤ يوليو ١٨٧٤ – ١٩ ديسمبر ١٩٤٤م) خديوي مصر من ٨ يناير ١٨٩٢ إلى عزله في ١٩ سبتمبر ١٩١٤ .

الحكومة إذًا شخصيَّة تابعة لشخص الخديوي ، ليس لأحد من رعيَّته عليه حق فيها، والمسلمون هم الذين قاموا يطلبون منه أن يمنح البلاد الدستور الذي يجعل للأمَّة حق الشركة معه في حكم البلاد ، والقبط لم تطلب ذلك ، فكل ما ناله القبط من الوظائف الكثيرة هي فضل وإحسان من أمير مصر المسلم المتساهل ولم يكن مؤديًا لحقوق واجبة عليه فيه.

مطالب دعاة الجنسية الإسلامية

وأما المسلمون (والكلام مازال لرشيد رضا) فإذا لم يكن لهم حقوق عليه بحسب شكل الحكومة الشخصي الذي أقرَّته الدولة الكبرى ، فيمكن أن يقال : إن لهم أن يطالبوه بحقوق يوجبها عليه دينه ، فيكون الرجاء في إجابتها منوطًا باعتقاده ووجدانه .

هذا هو الحق الذي يزهق به كل باطل .

الإسلام دين وجنسيَّة اجتماعيَّة وسياسيَّة للمسلمين ، هذا هو الواقع، وإن كرهه أقوام يودُّون أن يكون دينًا فقط لا رابطة بين أهله في الأمور السياسيَّة ولا الاجتماعيَّة ؛ لما لأولئك من المصلحة في ذلك ؛ وجنسيته واسعة تشمل المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويسرون الكفر والإلحاد .

وتتسع لكلٍّ من يرضى بحكمه الذي هو رابطته السياسية ، فجيز استخدامهم في أكثر مصالح حكومته ، وقد ارتقى فيها غير المسلمين إلى منصب الوزارة في دوله العزيزة القوية التي لم يكن في الأرض من يقف في وجه قوتها كأبي إسحق الصابئ في الدولة العباسيَّة ، فمثل شريعته في ذلك كمثل قوانين دولة النمسا مثلاً ، كل منهما جنسيَّة

سياسة يخضع لها شعوب مختلفون في اللغات والمذاهب والأديان ، ولكن بينهما فروقًا أهمها أن الفئة الغالبة في الجنسية الإسلامية السياسية ، وهي التي تدين بالإسلام تعتقد أن أصول شريعتها وبعض فروعها منزلة من عند الله ، وبعضها الآخر من اجتهاد الناس .

لا يضر من يشارك المسلمين في الخضوع لشريعتهم أن كانوا يدينون الله بهذا الخضوع وهو لا يدين لله به ، فإن حقوقه على المسلمين المكفولة بها تكون حينئذ مضمونة بقوة الحكومة في الظاهر وقوة الاعتقاد في النفس ، وحقوقهم عليه لا تكون مضمونة إلا في الظاهر فقط ، فالمسلم المتدين لا يأكل حق غيره وإن أمن عقاب الحكومة ، وغير المسلم قد يأكل حق المسلم المحكوم به إذا أمن العقاب ؛ لأن وجدانه لا يعارضه في ذلك ، إذا اعتقد أن الحكم لا يجب الخضوع له .

وتمتاز هذه الشريعة على جميع الشرائع والقوانين بأنها تخير من لا يدينون بها بين التحاكم إلى أهلها إن رضوا بذلك وبين التحاكم إلى أهل دينهم ، فهي باحترامها الحرية لا تكره أحدًا على عقيدتها وأعمالها الدينيَّة ، ولا على أحكامها الشخصيَّة ولا المدنيَّة .

غلب على المسلمين الجهل بحقيقة الإسلام من حيث هو دين ، ومن حيث هو جنسيَّة ، حتى رضوا بحكم الجاهلين والمارقين منهم ، فارتخت روابطهم كلها ، فسهل على ساسة أوروبا الأفتيات عليهم ، والنفث اللطيف في بقايا العقد التي تربط بعضهم ببعض ، وتنكيث قوى حبلهم من غير جلبة ولا ضوضاء كجلبة المؤتمر القبطي والجرائد القبطيَّة .

ذلك بأنها فتحت أقفال قلوبهم وأفكارههم ، وزينت لهم آدابًا غير آدابهم ، وشرائع غير شريعتهم ، وجنسيات غير جنسيتهم ، وسلطت بعضهم على بعض ؛ ليجذبه إلى ذلك من حيث لا يشعر المسلط ولا المسلط عليه . فهذه التعاليم التي تبثها فيهم تستل من نفوسهم كل شيء إسلامي برفق ولذة ، كما تستل الراح (الخمر) عقل شاربها ، ولو سلكت مسلك جرائد القبط وخطباء القبط في التوسل إلى ذلك لما زادت المسلمين إلا استمساكًا واعتصامًا بكل ما تريد أن يتركوه .

اللوم إغراء ، والمنازعة مدعاة المشاحة ، والتعصب مثار التعصب ، فكيف تصورت القبط أن تنال بهذه الجلبة على ضعفها ، ما تعلم أوربا أنها تعجز أن تناله بمثل ذلك على قوتها ؟

أما علموا أن من استعجل الشيء قبل أوانه ، عوقب بحرمانه ، إلا أنني أعتقد أنهم كانوا على مقربة من كل ما يطلبون ، وإن هذه الجلبة ما زادتهم إلا بعدًا عنه ، ولهذا قلت : إنهم لو صبروا واتبعوا منهاج الحكمة وسنن الاجتماع (كما كان يفعل زعيمهم ونابغتهم) لنالوا من المسلمين بالمسلمين كل ما أرادوا ولكن أبوا إلا أن يذكروا المسلمين بغبنهم ، ويدعوهم إلى الاجتماع والتشاور في أمرهم ، بتأليف مؤتمر يتبينون فيه من هم ، وما هي نسبتهم إلى غيرهم ، وما كانوا لولا هذه الحركة القبطية ليقدموا على ذلك .

ولكن القبط أبوا إلا أن يقولوا (قبطي وقبطيَّة) ولم يحسبوا حسابًا لمقابلة المسلمين لهم على ذلك بقول : إسلامي وإسلامية .

أليس من المعقول أن يقول المسلم المصري : إننا قد تركنا جنسيتنا الإسلاميَّة ، ونحن أكثر من أحد عشر مليونًا ؛ لأجل الاتحاد بنصف مليون من القبط لم نستفد ولن نستفد بالاتحاد شيئًا لم يكن لنا ، بل خسرنا وسنخسر كثيرًا مما كان لنا وحدنا ، فكيف رضي المغبون الخاسر ، ولم يرض الرابح الظافر ؟ أليس من الذل والهوان أن نرضى بالانتقال من إسلاميَّة إلى (مصريَّة) ؛ ليكون ذلك مدرجة إلى الانتقال من (مصريَّة) إلى (قبطيَّة) ، وإذا كانت هذه الجنسيَّة المصريَّة التي انتحلناها تبعدنا عن سائر إخواننا المسلمين وهم يعدون بمئات الملايين، ولا تقربنا من جيراننا القبط وهم نصف مليون ، فكيف تكون جنسيَّة جديدة لنا ولم يتجدَّد لنا بها شيء ؟ صرنا نعدُّ المسلم الشامي والحجازي دخيلاً فينا ، لا نسمح أن يدخل حكومتنا ، أو يشاركنا في مصالحنا لأجل أن يكون القبطي أخًا لنا ، له ما لنا وعليه ما علينا ، فأبعدنا ذاك ولم نستطع أن نقرَّب هذا ، فمن نحن إذًا وما هي جنسيتنا ؟ (١)

رد رشيد رضا على دعاة الجنسية القبطية والإسلامية

وبعد أن عرض رشيد رضا لمطالب كل من دعاة الجنسية القبطية والجنسية الإسلامية قال : " كان الأمير محمد إبراهيم قد عني باللغة العربية من دون سائر هذه الأسرة الخديوية ، فدخل عليه بعض أقاربه الأمراء ، فرآه ينظر في بعض الكتب العربية فلامه على ذلك وسأله عن سبب هذه العناية ، فأجابه : هل نحن إفرنج وهل يعدنا الإفرنج منهم ؟

(١) رشيد رضا ، مجلة المنار " المسلمون والقبط " ج ١٤ ص ٢٠١

قال اللائم : لا .. قال : هل يعدنا الترك منهم ؟ قال : لا .. قال : فهل الأفضل لنا أن لا يكون لنا جنس ؟ كلا .. إننا قد صرنا عربًا مصريين، فالواجب علينا أن نعرف لغة أبناء جنسنا .

هذه هي الحكمة التي نطق بها الأمير محمد إبراهيم فحج بها لائمه . أفلا يسع القبط ما وسع الأسرة المالكية ، فيكونوا عربًا مصريين ؟ ويتركوا كلمة قبط في كل ما يتعلق بالحكومة والمصالح الدنيويَّة ، ويجعلوها خاصة بمجلسهم الملِّي وشئونهم الدينية فيكونوا هم المفلحين ، فإن القبطيَّة تصلح أن تكون جنسيَّة دينيَّة لهم إن أحبوا أن لا يمتزجوا بغيرهم من النصارى المتمصِّرين ، ولكنها لا تصلح جنسيَّة سياسيَّة دينيَّة معًا ولا سياسيَّة فقط ؛ إذ لا يمكن أن يرضى المسلمون أن يعودوا في مصر قبطًا ، ولا في بلاد الأعاجم وثنيين ومجوسًا وبوذيين ، فإذا كانوا يطلبون المساواة حقيقة لا تمويهًا ، فليتركوا العصبية القبطية والجنسية القبطية والمطالب القبطية .

فإن كل شيء ينالونه بهذه النسبة وهذا اللقب يدفع المسلمين إلى الرجوع إلى الجنسية الإسلامية ، ويخشى حينئذ أن يخسروا بحق بعض ما ربحوه بغير حق .

إن كلمة واحدة من لجنة مؤتمر القبط التنفيذية تحل الإشكال ، وهي (قررنا أن لا نطلب من الحكومة شيئًا للقبط ، بل ندعها تختار الأكفاء لأعمالها برأيها واجتهادها ، وأن لا يذكر لفظ قبط ولا مسيحيين في المصالح الدنيوية) .

إنني أعتقد أن هذا الحل خير للقبط ولجميع المسيحيين في هذا القطر ؛ لأنهم يكونون هم الرابحين فيه ، وأن الأربح للمسلمين أن يحافظوا على جنسيتهم الإسلامية ، ولكنهم يرضون بإيثار غيرهم عليهم بمساواته بهم في بعض المصالح ، ورجحانه عليهم في بعض المرافق ، إذا هو ترك لهم بعض الخصائص التي صارت أعضاء أثرية أو كادت، ولا يضره تركها لهم ، وهو يعلم أنها ستزول بالتدريج .

والنتيجة الطبيعية محصورة في أحد أمرين كما علم من كلامنا آنفًا : إما استمرار القبط على مطالبهم القبطيَّة ، ورجوع المسلمون إلى جنسيتهم الإسلاميَّة ، ومقاومة القبط بالوسائل الاجتماعيَّة والأدبيَّة . وإما رجوع القبط عن هذه النزعة الدينيَّة وسكوتهم منذ اليوم عن مطالبهم ، وحينئذ يبقى المسلمون على ما كانوا عليه من التساهل والدعوة إلى الوطنيَّة والجنسيَّة المصريَّة التي يفضِّلون بها القبطي على المسلم غير المصري وإن تمصَّر .(١)

ولقد أعفانا الشيخ رشيد رضا في نهاية مقالته من الردِّ على المسلمين الذين يدعون إلى الجنسيَّة الإسلاميَّة والمسيحيين الذين يدعون إلى الديانة القبطيَّة وبقي أن نؤكد أن هذا الخلاف خلاف بين بعض الفئات القليلة من المسلمين والمسيحيين وليس تيَّاراً عاماً يدين به كل المسلمين أو المسيحيين ، وأن هذا الخلاف مؤقَّت بفترات قصيرة الأمد ، ومحصور في أماكن محدود المساحة ، وقاصر على فئات معينة قليلة

---

(١) رشيد رضا ، مجلة المنار " المسلمون والقبط " ج ١٤ ص ٢٠١

العدد ، ولا يظهر الداعين إليه إلا عند الفتن وتعود فتخبو جذوته فور انتهائها .

مؤتمر المسلمين ١٩١١م

عقد الأقباط مؤتمراً لهم في أسيوط ندَّدوا فيه بالمسلمين، وشادوا بذكر القبط ومحاسنهم وكفايتهم، وأجابهم المسلمون بعقد مؤتمر آخر في مصر الجديدة برياسة مصطفى باشا رياض ، وكان انعقاد هذا المؤتمر في غرة مايو سنة ١٩١١، وسموه المؤتمر المصري، وخطب فيه وجهاء المسلمين، كالشيخ علي يوسف وكان موضوع خطبته " التعليم في مصر وحظ المسلمين والأقباط منه " ، والشيخ عبد العزيز جاويش في: "الربا في الإسلام " ، وطلعت حرب قد خطب خطبة دعا فيها إلى إنشاء بنك مصر، وكذلك فعلوا على العموم في الإشادة بالمسلمين وتفضيلهم على الأقباط في العلم والذكاء الكفاية.

ولما ثارت الحرب العالمية أراد بعضهم أن يثير الفتنة بين المسلمين والأقباط من جديد فحاول الإنجليز أن يثيروا الأقلية على الأكثريَّة، فكان الرد عليهم تعانق الصليب والهلال رمزاً لاتحاد المسلمين والأقباط وفعلوا في تحقيق ذلك أفعالاً كثيرة سدوا بها هذه الفجوة .

ولمَّا تألف الوفد المصري، للمطالبة بالاستقلال، كان من أعضائه مسلمون وأقباط؛ وارتفع صوت العقلاء يقضون على نزعة التعصب هذه، ويدعون إلى الألفة والاتحاد منعاً لدخول المحتلين من منفذ ولو ضيق، ليوسعوا شقة الخلاف .(١)

---

(1) أحمد أمين " قاموس العادات والتقليد والتعابير المصرية " دار الشروق ص ٢٣٢ ، ٢٣٣

المواطنة هي الحلُّ

إن المواطنة هي الحل لمثل هذه الآراء المتطرِّفة فالمواطنة تجعل جميع المواطنين المصريين لدي القانون سواء وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة .

ونختم هذا الموضع برد رشيد رضا على بعض المسيحيين دعاة القبطيَّة كجنسيَّة وديانة ثم نتبعه بتعليق موجز عليه .

يقول رشيد رضا : " تقول القبط : إن لنا من الحقوق في هذه الحكومة ما ليس لغيرنا ؛ لأننا سكان البلاد الأصليين ، ويجيبهم المسلمون على هذا بأربعة أجوبة :

(١) إننا لا نسلم أنكم سكان البلاد الأصليين ، وسلالة الفراعنة المستكبرين ، وقد صرَّح المسلمون بهذا ، وأيَّدوه بأقوال مؤرخي الإفرنج.

(٢) إذا سلمنا أنكم من سلالة قدماء المصريين ، فإن لنا أن نتبع فيكم سنة أرقى الحكومات المسيحيَّة علمًا وعدلاً وحرية في سكان بلادها الأصليين ، وهي حكومة الولايات المتحدة ، فهل ترضون أن تكون حقوقكم في هذه البلاد كحقوق هنود أمريكة في حكومتها الآن ، وهم أهلها الأصلاء بغير خلاف ؟

(٣) إنكم تقولون : إن أكثر مسلمي هذه البلاد منكم وأقلهم من العرب والترك والشركس ، فلا مزية لكم في هذا النسب الشريف على جمهور المصريين المسلمين، ولهم المزية عليكم بكثرتهم ، وكون الحاكم

العام من أهل دينهم ، وذلك سبب للترجيح متبع في الحكومات المسيحية الراقية .

(٤) إن طول زمن الإقامة في بلد لا يقتضي التفضيل في الحقوق ، وقصره لا يقتضي الحرمان من شيء منها ، متى كان القوم الذين طالت مدتهم أو قصرت من أهل البلاد المقيمين فيها خاضعين لشريعتها وقوانينها .

كان بنو إسرائيل دخلاء في مصر وفضلَّهم الله تعالى في كتبه على آل فرعون ، ثم فضَّل الله تعالى العرب واصطفاهم بإرسال رسوله منهم، مثلما اصطفى إخوتهم بني إسرائيل من قبلهم بإرسال رسوله منهم ، كما أشار إلى ذلك في سفر تثنية الاشتراع ، فكيف تطالب حكومة مصر التي تدين الله تعالى بتفضيل الشعب الإسرائيلي والشعب العربي في النسب على الشعب الفرعوني ؛ أن تميز الشعب المفضول في كتب الله على الشعب الفاضل بل الشعبين الفاضلين ، على أن الأنساب في دين هذه الحكومة وشرعها ، لا تقتضي التفضيل في الحقوق على قدر الفضل في النسب .

فعلم مما بيناه أن النسب الفرعوني الذي تدل به القبط غير مسلم لهم، وإذا سلم جدلاً فهو لا يقتضي تفضيلهم على اليهود ، بل اليهود أشرف منهم نسبًا ؛ لأنهم ينتسبون إلى أنبياء الله تعالى ، والقبط تنتسب إلى الفراعنة الوثنيين أعداء الله تعالى، وإذا لم يكن لهم صفة تقتضي تميزهم على غيرهم من المصريين ، فقد هدم الأساس الذي بنوا عليه طلب تعليم دينهم في مدارس الحكومة .[١]

---

(١) رشيد رضا ، مجلة المنار " المسلمون والقبط " عدد مارس ١٩١١ ج ١٤ ص ٢٠١

والحقيقة أن ادعاء بعض المسيحيين أنهم وحدهم المصريون الحقيقيون ادعاء فاسد كما أن ادعاء بعض المسلمين أن المسيحيين ينتسبون إلى الفراعنة الوثنيين ادعاء أفسد ؛ فمعظم المصريين : مسلمين ومسيحيين من نسل المصريين القدماء العظام وليسوا من نسل فرعون ؛ ففرعون المتأله الطاغيَّة اسم عَلَم على حاكم مصر وهو في الغالب رمسيس الثاني ، وليس لقباً لكل حكام مصر .

هل المسيحيون مصريون والمسلمون عرب ؟

زعم دعاة القبطيَّة أن المسلمين ، غالبيَّة سكان مصر ، من أصل عربي وليسوا مصريين ، وأن الأقباط (يقصدون المسيحيين) هم ، فحسب ، الذين ينحدرون من سلالة المصريين القدماء ؛ لذا يصرُّون على أن يطلقوا على أنفسهم أقباطاً ، ويسعدهم أن يدعوهم المسلمون أقباطاً ، والعجيب أن كثيراً من المسلمين يطلقون على مسيحي مصر أقباطاً ويقصدون بها الديانة وليس الجنسيَّة ، وبعض المسلمين يعتزُّون بأنهم عرباً – رغم أنهم الحقيقة غير هذا – كاعتزازهم بأنهم مسلمون .

وبعض الباحثين يرون أن المصريين القدماء من أصل عربي ، ويدلِّلون على ذلك بتشابه كثير من المفردات العربيَّة للكلمات الهيروغليفيَّة ، والبعض الآخر يرى أن المصريين ساميون كالعرب .

يقول رشيد رضا : " إن العرب من أقدم أمم الأرض حضارة وعمرانًا ورسلاً وشرائع ، حتى إنهم استعمروا أقدم البلاد مَدَنيَّة كمصر وسورية والعراق ، فلهم في حضارة الفراعنة والفينيقيين والكلدانيين العِرْق الراسخ،

والمجد الشامخ ، فإن لم تكن تلك الأمم فروعًا منهم ، فلها وشائج أرحام مشتبكة بهم ، من قبل أن مزجها الإسلام بهم في الدين واللغة والنسب بألوف السنين.. ومن ذلك ما اكتشفه أحمد بك كمال العالم الأثري المصري من امتزاج اللغة المصريَّة القديمة (الهيروغليفيَّة) باللغة العربيَّة الدال على أحد أمرين ، إما أن العرب وقدماء المصريين من عِرْق واحد ، وإما أن العرب قد استعمروا مصر وحكموا فيها قبل دولة الرعاة العربيَّة المعروف خبرها في تاريخ مصر ، فكان للغتهم الأثر الخالد في لغتها . " (١)

الأجناس الإنسانية والاحتلال الغربي

في بداية حديثنا عن الجنس المصري لا بدَّ أن نذكر أن مفهوم "الجنْس" مِن مُستحدَثات القرن التاسع عشر الأوربي، وقد وُضِع اعتِسافًا لتبرير سيطرة الغرب الاستعماريَّة، وللفصل بين الفصائل اللغويَّة، بناءً على فكرة الاختلاف "البيولوجي" ولا سيما فكرة التدرُّج بين الأجناس الإنسانيَّة الكبرى .

وقد توصل الكونت دي جوبينو في كتابه: "دراسة عن تفاوُت الأجناس الإنسانيَّة " إلى نتيجة هي: أن الأجناس تَفْسَدُ حين تتهجَّن .

لقد استُخدمت النظرية الكاذبة عن الجنس دائمًا لتبرير أعمال السيطرة والعُنْف، والمثال الذي بلغ الذِّرْوة في ذلك هو النازيَّة، فهِتلر يتَّهم في كتابه: "كفاحي" اليهود بأنهم يُريدون أن يدمِّروا بالغباء الناشئ

---

(١) رشيد رضا " مجلة المنار " ج ٢٢ ص ١٣٣

عن التهجين هذا الجنس الأبيض الذي يَمْقُتونه ثم يقول: "إن اليهودي يُسمم دم الآخرين، ولكنه يَحتفظ بدمه".

إن العنصريَّة ليس لها أيُّ أساسٍ علمي، ولقد ظهر من الناحيَّة البيولوجيَّة أن النظرية القديمة التي كانت تَستخدم "دليل الجُمجمة" لتمييز مُستطيلي الرأس عن "عِرَاض الجُمجمة" هي نظريَّة يَستحيل التسليم بها، ذلك أن علْم الوراثة الحديث أثبت أن بعض "الجينات" تحكم الخواص المَصلية في الدم، وهو دليل يكشف بُطلان المفهوم البيولوجي عن الجنس.

وجاء أعظم المُتخصِّصين في الموضوع، وهو الأستاذ جان برنارد فهدم "أسطورة الدم" التي تفترض تفاوت الدماء، والقيمة المتفاوتة لدماء الناس المُختلفين، وكتب يقول: "إن هناك علاقةٌ مُقرَّرة، ومُسلَّمة، بين قيمة الدم من ناحية، وقيمة الإنسان من ناحية أخرى، ذكائه، وقوته، وشجاعته، وفضائله المادية والأخلاقية، وتلك نظرية قديمة جدًّا، ذاعت كثيرًا في القرن التاسع عشر، وفي القرن العشرين، من جالتون ، وهو قريب من داروين، إلى هتْلر، مُرورًا بفاشر دي لبوج وجوبينو، وهي ما زالت تُلهم حديثًا بعض المُتمسكين بها من البيولوجيين الاجتماعيين الجُدد ولم تكفِ خواصُّ الدم، وصفات الذكاء عن أن تَتشابك على طول هذا التاريخ الخطِر، تارة يكون التركيز على خواص الدم، وتارة أخرى على صفات الذكاء.

والحق أن هذه الأحكام المؤكدة، الخادعة والمُهلكة في آن واحد . لا تقوم على شيء.

لقد كان الهدف مِن القوانين الهتْلرية في نورمبرج "حماية الدم الألماني" بمُطاردة الدم اليهودي، وقد اصطدم تطبيقها بنفس المشكلات الزائفة التي هي اليوم مشكلات دولة إسرائيل فيما شرعته مِن "قانون العودة": مَن يكون اليهودي؟ إذ إنه لم يعُد يُوجد "جنس يهوديٌّ " كما لا يُوجَد "جنس آري". (١)

وبحلول الثلاثينيات من القرن العشرين كانت الحياة في الغرب قد تحوَّلت عن العنصريَّة التي فقدت إلى حدٍّ كبير ما كانت تحظى به من قبول وتأييد في الأوساط العلميَّة. وكما يقول الزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف: بعد أن عشنا عصراً أصبحت فيه كلمة «عنصر» أو «عرْق» معادلة للقسوة والبربريَّة، فإن معظم الناس ينفرون من استخدام هذا المصطلح .. (2)

لويس عوض يرد على دعاة الجنسية القبطية

وبعد أن تحدَّث لويس عوض عن أسطورة النقاء العرقي ودوافع من نادوا بهذه الأسطورة يردٌّ في لغة واضحة جليَّة على من زعموا نقاء العرق المسيحي ، وقصر القبطيَّة كجنس على المسيحيين فقط ، كذلك من زعم نقاء العرق العربي ، وقصر العروبة كجنس على المسلمين فقط.

---

(1) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الثاني : من اليهودية إلى القومية الصهيونية .

(2) د . عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٢ ج١ إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية .

يقول لويس عوض : " إن أقباط مصر لا ينطبق عليهم أي ركن من أركان تعريف الأقليَّات الذي نصَّت عليه لجنة حقوق الإنسان .

أولاً : لأن الأقباط ليسوا جماعة لها أصل عرقي يختلف بصفة واضحة ولا بصفة غامضة عن بقيَّة الشعب المصري الذي تعيش فيه . فالمعروف أن المصريين ، مسلموهم كأقباطهم تتحدر أعراقهم الأساسيَّة عن القدماء المصريين ، فإن كانت في هؤلاء أو أولئك دماء وافدة فقد ذابت في البحر المصري الكبير .

ومن خرافاتنا المتوارثة أننا نتحدث عن " عنصري " الأمَّة المصريَّة ، فالأمَّة المصريَّة ليس فيها إلا عنصر واحد يتجلَّى في الأغلبيَّة الساحقة من أبنائها أيَّا كان دينها . وإن خرافة العنصرين نزلت إلينا من زعم الأقباط أنهم وحدهم من سلالة قدماء المصريين وإنهم أصحاب مصر الأصليين ، ومن زعم المسلمين أنهم من سلالة العرب الشريفة ، وفي حين أن الأنثروبولوجيا الجنسيَّة لا تميِّز بين هؤلاء وأولئك لا في مقاييس الجماجم والأنوف والعظام ولا في نسبة تجلط الدم ولا في خواص الشعر الخ .. بينما هي تميِّز في كلِّ هذه الخصائص السلاليَّة بين المصريين عامَّة وبين جيرانهم من شعوب غربي آسيا في الشام والعراق والجزيرة العربيَّة ... الكثرة المطلقة من المسلمين أقباط اعتنقوا الإسلام قرناً بعد قرن منذ الفتح : وحكاية عمر بن عبد العزيز معروفة ، وهي أنه عندما كثر دخول المصريين الإسلام في أيامه نقصت حصيلة الجزية فاستأذن عامل مصر في أن يمنعهم من ذلك تأسيساً على أن الإسلام دين عربي أرسل للعرب ، فنهره عمر بن عبد العزيز وكتب إليه يقول : " إن الله أرسل محمداً هادياً لا جابياً " .

وثانياً : لأن الأقباط ليسوا جماعة لها تقاليد لغويَّة وصفات تختلف بصفة واضحة أو غامضة عن بقية الشعب الذي نعيش فيه ، فهي تتكلم عربيَّة مصر العاميَّة وهي تكتب وتقرأ العربيَّة الفصحى والتراث العربي ، وهي قد تخلَّت عن اللغة القبطيَّة حين تخلَّى المسلمون عنها لا لشيء إلا لأن المصريين من عجينة واحدة ، ولست أعرف أن للأقباط " صفات " خاصة يختلفون بها عن المسلمين .

وثالثاً : لم يبق إلا المعتقدات والتقاليد الدينيَّة ، فهذه وحدها يختلف فيها أقباط مصر عن مسلميها ، وحتى في هذه الحدود فمعروف للخاص والعام أن الكنيسة المصريَّة كنيسة قوميَّة لا تعرف لها أباً روحيّاً إلا بابا الإسكندرية ، وأنها نشأت قبل أن تنشأ كنائس العالم أجمع بما في ذلك الفاتيكان أو كنيسة القديس بطرس وأنها في عقائدها متَّهمة من سائر كنائس العالم بالإسراف في التوحيد أو ما يسمونه "المونوفيزية" أو الإيمان بالطبيعة الواحدة ، ومتَّهمة بالإسراف في تقديس مريم إلى حد وصفها " بالماريولوجيَّة " بل معروف للخاص والعام أنه في كثير من الشعائر الدينيَّة ولاسيما طقوس الموت والميلاد والإخصاب والسحر والشفاعة ، وبعض الأعياد لا فرق هناك بين قبطي ومسلم في التقاليد والعادات ، لأن أكثرها نزل إلى المصريين مع موروثات مصر القديمة . فالأقباط إذن ليسوا أقليَّة بتعريف لجنة حقوق الإنسان كالأكراد في العراق ، والأرمن في الدولة العثمانيَّة والدروز في لبنان .. الخ لأن وحدة العرق ووحدة اللغة فضلاً عن انسجام التقاليد والثقافة تجعل من الأمَّة المصريَّة سبيكة واحدة رغم أن أبناء كلِّ ملَّة فيها لا يتزاوجون مع

الآخـرين إلا غـراراً ، بحيـث لا تميِّـز بـين المـسلم والقبطـي إلا بمعونـة دلالات عرضية، ولا حواجز بينهما إلا عند المتعصبين في الدينيين " (١)

معنى كلمة القبط عند علماء المصريات

ويقول د. نجيب ميخائيل إبراهيم (من أبـرز علمـاء المـصريات) : " القـبط لا تعنـي دينـاً وإنمـا القـبط هـم المـصريون اعتنقـوا المـسيحيَّة جميعهم دهـراً فأصـبحت الكلمـة تـرادف مـسيحيي مـصر أو المـصريين قاطبـة ثم جاء الإسـلام فاعتنقه غالبيَّة القبط على مر العصور وظلُّوا قبطاً مسلمين أي مصريين مسلمين كما ظلَّ إخوانهم في الوطن قبطاً مسيحيين .. أولئك من وراء محمد ، هؤلاء من وراء المسيح ، والـدين مـن قبـل ومـن بعـد للـديان جـلَّ جلالـه والـوطن لأصـحابه القـبط المصريين"(٢)

النقاء الجنسي وتمزيق جسد الأمة

إن أسطورة نقاء العنصر القبطي المسيحي كانت من بين الأسافين التي حاول المحتلِّين الأجانب دقَّها بين المصريين لتمزيق جسد الأمَّة الواحدة .

جاء في كتاب وصف مصر : " لعلَّ أكثر الطوائف إثارة للاهتمام من بين كلِّ السكان هي طائفة الأقباط بلا جدال ؛ ذلك أنهم يعتبرون

(١) لويس عوض " دراسات في الحضارة " دار المستقبل العربي ص ٢١، ٢٢
(٢) د. نجيب ميخائيل إبراهيم " مصر والشرق الأدنى القديم " مؤسسة المطبوعات الحديثة ط٣ ص ٢

أنفسهم أحفاداً للمصريين القدماء ، كما يرون في لغتهم وفي المسارات التي سلكتها الأحداث التاريخيَّة ما يرجِّح كفة هذا الادعاء ، ومما لا جدال فيه أن لهم ملمحاً فيزيقياً شديد القرب من ملمح الإفريقيين لحد يكفي لكي يحملنا على أن ننسب لهم أصلاً يعود إلى الدولة القديمة ، ولعلَّ بمقدورنا أن نفترض أن جنسهم قد استطاع أن يظل نقيّاً بعيداً عن أي اختلاط بالإغريق إذ ليس ثمة بينهما أي ملمح من تشابه . وعندما استولى الإسكندر على مصر واستقرَّ فيها الإغريق بشكل دائم تحت حكم البطالمة فلابد أن كان ثمة جنسان متميزان ، ومنذ ذلك الوقت أصبح المصريون ، الذين عُرِفوا باسم الأقباط يشكلون طائفة منعزلة تماماً حتى اليوم عن بقية الأجناس التي تشكل الآن الجزء الأعظم من سكان مصر ... ويبدو الصعيد بمثابة مهد لهم فقد كانت أعدادهم هناك على الدوام كبيرة وما يزال الأمر كذلك حتى اليوم ، لكنهم بعد كثير من التقلبات السياسيَّة والأزمات السياسيَّة لقوا مصير سكان مصر الآخرين"(١)

وهذا الذي ذكره الفرنسيون الصليبيون الغزاة للأسف ما زال بعض الناس يؤمنون به والعجيب أن هذا البعض من المسلمين والمسيحيين على السواء ، والأعجب من ذلك أن بعض وعاظ الدين الإسلامي أكثر إيماناً وتمسُّكاً بل وجهراً بأن نصارى مصر الحاليين هم أحفاد أقباط مصر القدماء الذين فتح العرب المسلمون بلادهم ؛ لذا يُصرُّون على أن

(١) موسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب ج ١ " المصريون المحدثون " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٤ ، ٢٥ .

يطلقوا عليهم لفظ " الأقباط " أو " نصارى مصر " كما يعتقد هؤلاء الوعاظ أن مسلمي مصر الحاليين هم أحفاد الفاتحين العرب !!

وفي مقابل هؤلاء الوعاظ المسلمين نجد بعض القساوسة والرهبان في مواعظهم وأحاديثهم الخاصَّة يؤكِّدون ما ذكره علماء الحملة الفرنسية عن أجدادهم ، أما أقباط المهجر فالأمر عندهم يتجاوز كل حد .

لغة الأرقام

والحقيقة أن الشعب المصري عظيم العنصر قد اختلطت به دماء كثيرة : يونان، ورمان ، عرب ، مماليك ، أتراك ، إنجليز ... انتفع بأجمل سماتهم مع احتفاظه بخصائصه الأصيلة .

وإذا تحدثنا بلغة الأرقام نجد أن المؤرخين المسيحيين والمسلمين الأوائل ممن أرَّخوا لفتح مصر في شبه إجماع على أن عدد المصريين عند الفتح لا يقل عن خمسة وعشرين مليوناً .

يقول الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني : " من فرضت عليهم الجزية دينارين بحسب معاهدتي بابليون والإسكندرية بلغوا ستة ملايين وذلك لأن مقدار الجزية وحدها (بخلاف الضرائب الأخرى على الأرض وخلافه كانت تسمى الخراج) التي جمعت منهم بلغت اثني عشر ألف ألف دينار (اثني عشر مليوناً) ومعلوم أن الجزية كانت تقرر على الذكور ممن تبلغ أعمارهم من ١٥ إلى ٦٠ ويعفى منها النساء والشيوخ والصبيان والمعوقين وغير القادرين والرهبان ، واضح أن من تنطبق عليهم شروط دفع الجزية كانوا حوالي ربع سكان مصر من

القبط في ذلك الوقت ، نعتقد أن عددهم كان لا يمكن أن يقلَّ عن خمسة وعشرين مليوناً هذا وإن كان المؤرخ الإنجليزي ستانلي لين بول يقول إن ابن عبد الحكم يقدِّر دافعي الجزية (ضريبة الرأس من ستة إلى ثمانية ملايين نسمة فإذا كان الأمر كذلك فالعدد يرتفع إلى ثلاثين مليون قبطي " (١)

وهذا الرقم – في ظني – مبالغ فيه جداً جداً فعدد سكان مصر عام ٦٤٠ م لن يزيد بحال عن خمسة ملايين فمصر ، ومصر بلد جاذبة للسكان من المهاجرين من العرب والمماليك والأتراك وغيرهم ، وبرغم ذلك كان عدد سكانها في مطلع القرن العشرين نحو عشرة ملايين كما سيأتي تفصيله .

ولكن دعنا نسلِّم بأن عدد المصريين كما يقول المؤرخون المسيحيون والمسلمون خمسة وعشرون مليوناً عند الفتح ، منهم نحو عشرين ألف روماني مسيحي ممن استوطنوا مصر ، واثنا عشر ألف عربي مسلم هم إجمالي جيش عمرو بن العاص، فهل يعقل أن جيش عمرو بن العاص الذي استشهد كثير من في فتوح مصر وشمال إفريقيا قد أصبح نحو ثمانين مليوناً ، والخمسة والعشرون مليون مسيحي مصري وروماني قد صاروا نحو ستة ملايين مسيحي مصري الآن ؟!

والحقيقة التاريخية التي لا تتناطح فيها عنزتان أن معظم المصريين المسيحيين وغير المسيحيين قد دخلوا في الدين الإسلامي أفواجاً ، وأن

---

(١) الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني " وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها " مرجع سابق ص ٦٧

أي إنسان لا يستطيع التكهُّن بأن هذا المسيحي أو ذاك من أصل روماني أو مصري كما لا يستطيع أن يتكهَّن بأن هذا المسلم أو ذاك من أصل عربي أو مصري ، فدعنا من هذه التُّرهات التي يثيرها المتطرِّفون من هذا الطرف أو ذلك ولنبحث عما يجمع المصريين حول مصالحهم العليا وأهدافهم الكبرى بدلاً من إضاعة الوقت والجهد فيما لا طائل منه إلا الفرقة والضعف والانقسام والصراع .

ودونك الآن بعض الإحصاءات الحاسمة في هذا الموضوع .

أُجْرِىَ أول تعداد للسكان في عام ١٨٠٠م إبان عصر محمد علي باشا حيث بلغ عدد السكان ٢.٥ مليون نسمة، وفى ١٨٥٠ بلغ عدد السكان في تعداد إحصائي ٤.٥ مليون نسمة، وفى تعداد ١٨٨٢ بلغ عدد السكان ٦.٣ مليون نسمة .

فأين ذهب الخمسة والعشرون مليون مصري الذين كانوا عند الفتح على فرض أن عددهم لم يزد ؟!

الحقيقة إن دعوى أن مسيحيي مصر هم المصريون الخُلَّص فوق أنها دعوى عنصريَّة فهي دعوى خرافيَّة لا تقوم على ساقين .

العلم وأصل المصريين

إن نسبة المسيحيين المصريين كما ذكرت الإحصاءات المصريَّة الرسميَّة حوالي ٦ % وهي في تناقص مستمر بسبب الهجرة، والتحوُّل إلى الإسلام ، ونحن إذ نذكر هذه الإحصاءات لا نقصد تقسيم المصريين إلى أكثريَّة وأقليَّة ؛ فالمصريون جميعاً نسيج واحد وأمَّة

واحدة، وهذا ليس كلاماً مرسلاً أو شعاراً دعائيّاً إنما حقيقة علميَّة أثبتتها الأبحاث العلميَّة ، وهذا ما يؤكده د. وسيم السيسي الطبيب والمفكر المسيحي : " إننا شعب واحد.. من الناحية الجغرافيَّة، ونشرب من إناء واحد إلا وهو نهر النيل، ومائدة واحدة نتناول منها طعامنا وهي الوادي، ونحن كذلك شعب واحد من الناحية السياسية، ويتجلي ذلك في حكومة لم ينفرط عقدها منذ ٦ آلاف سنة، وكذلك نحن شعب واحد من الناحية البيولوجية وأول من أشار إلي ذلك هو فلندر اسبتري حين قال إن المشكلة في مصر ليس في غزوها.. وإنما المشكلة هي في الوصول إليها.. لماذا ؟! لأنك نادراً ما تجد شعباً متماثلاً في شكله الظاهري، بل في طباعه وأخلاقه ومزاياه، مثل الشعب المصري.

وقد ظل هذا القول قائما ومشهورا حتى جاءت السيدة مارجريت كندل وهي عالمة جينيات والتي أجرت دراسة عن ثلاثة شعوب، الألمان باعتبار أن هتلر كان يعلن دائما بأنهم من أنقي الشعوب لأنهم ينتمون الي الجنس الآري، فوجدت أن الجينات مختلفة وأن شعبها متباين تماما ثم البحث الثاني عن اليهود.. وقد فوجئت بأن يهود الاتحاد السوفيتي يحملون نفس فصائل الدم، وجينيات شعب الاتحاد السوفيتي، ويهود انجلترا مثل بقية الشعب الإنجليزي، ويهود أمريكا مثل الأمريكان .

إذن مسألة نقاء العرق اليهودي غير صحيحة، وهذا ما كان قد قاله العقاد منذ فترة طويلة، عندما ذكر أن العرق اليهودي النقي الوحيد متمثل في٣٠٠ شخص ينتمون إلي قبيلة السامرية، وهم من الذين لم يختلطوا بالشعوب الأخر.

لقد أعلنت أن الصدمة التي تلقتها من خلال بحثها الثالث ترتبط بالشعب المصري. إذ أخذت عينات متعددة من أسوان إلي الإسكندرية ومن الصحراء الغربية إلي الشرقية ومن المدن الكبرى والقرى والكفور والنجوع وعيادات الأطباء ومن المسلمين ومن المسيحيين. فكانت الصدمة الحضارية أن المسلمين والمسيحيين، جيناتهم واحدة في ٧٩٪ من العينات التي أخذتها.

يؤكد ما ذكره «إستامب» من عشرات السنين حين قال إنه بالرغم من الغزوات الكثيرة التي مرت علي مصر عبر العصور، إلا انه كان تغيراً في الحكام ولم يكن تغيراً في جنسية مصر لأن البحر المصري الكبير كان يذيب أية جينات وافدة عليه .. إذن ما ذكره استامب وفلندر اسبتري ومارجريت كندل بالنسبة للشعب المصري ومن دور هذا التأكيد العلمي السابع الإشارة إليه.. وهو أننا شعب واحد وتاريخيّاً وجغرافيّاً وسياسيّاً وبيولوجيّاً. وهذه هي عظمة مصر وسر قوتها. (١)

نأتي إلى قضيَّة مهمَّة أيضاً نرُّد فيها على هؤلاء المصريين الذين يزعمون أن كل مسلم مصري من أصل عربي !! كأن الإسلام خصوصيَّة عربيَّة ، وليس هناك فرق بين العرب المُسْتَعْرِبَة والعرب المُسْتَعْجَمَة .

(١) من حوار أجراه صلاح صيام مع د. وسيم السيسي نشر علي بوابة الوفد الاليكترونية بتاريخ ٢٠١٣/٧/١١

الإسلام والعروبة

الإسلام ، كدين ، ومن حيث أصوله الاعتقاديَّة ، ليس " خصوصيَّة عربيَّة " حتى يكون قسمة من قسمات العرب القوميَّة ، وإنما هو من هذا الجانب ، وفي هذه الأصول – علاوة على كونه وضعاً إلهيّاً وليس إفرازاً بشريّاً – ذو قسمة عالميَّة وإنسانيَّة ، وذو طابع عام يتعدَّى الأمم والشعوب والقوميات والحضارات .. إنه في مجاله كالقوانين العامَّة التي – لعلميتها – تتعدَّى بصلاحياتها وتوجهها كلَّ ما علي الأرض من حدود وفواصل وتقسيمات وسدود .

والإسلام الدين رغم عالميَّته التي تتعدَّى وتتخطَّى حدود القوميَّات والحضارات والأجناس . نجده يطلب من أتباعه إن هم أرادوا فقه معجزته ووعي آيته الكبرى أن يتعرَّبوا ؟! وتلك ولا شك خصوصيَّة عربيَّة للإسلام لا ريب فيها ولا إبهام رغم " عالميَّة الدين " ! (١)

تعريف النبي ﷺ للعربي

وفي مصر قدَّم الإسلام الحضارة مفهوماً للعروبة يتجاوز عصبيَّة الجاهليَّة ويرفضها . ويتجاوز النعرات العرقيَّة وينهي عنها ويضع محلَّ كل ذلك مفهوماً حضاريّاً ، يعتمد الفكر واللغة والعلائق القوميَّة بين أبناء هذه الجماعة البشريَّة معياراً لمن هو العربي .

فيخطب الرسول في الناس قائلاً : " يا أيها الناس إن الربَّ واحد ، والأب واحد، وليست العربيَّة بأحدكم من أب ولا أمٍّ ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلَّم بالعربيَّة فهو عربي. "

---

(١) د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص١٠، ١١ .

وروي في مناسبة هذا الحديث أن قيساً بن مطاطية جاء إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ، فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟ فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلبيبه ، ثم أتى به النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام النبي ﷺ قائماً يجر ردائه حتى دخل المسجد ثم نودي: أن الصلاة جامعة ، وقال : (ذكر هذا الحديث) ، فقام معاذ بن جبل وهو آخذ بتلبيبه ، قال : فما تأمرنا بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال : دعه إلى النار ، فكان قيس ممن ارتدَّ في الردة ، فقتل [رواه ابن عساكر]

وهذا الحديث – ضعيف السند صحيح المعنى – (١) سحب بساط العنصريَّة المقيتة من العرب المُسْتَعْرِبة وينفي استئثارهم باللسان العربي دون العرب المُسْتَعْجَمَة ، وينزع نبرة الاستعلاء ونزعة العنصريَّة التي كانت لدى بعض العرب – كالأمويين ومن جاراهم – في التفاخر بأنهم أفضل البشر لأنهم هم العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث رسول آخر الزمان من بينهم .

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٧]

عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك وقاتلتك العرب فقال رسول الله ﷺ إن فقههم قليل وان الشيطان ينطق على ألسنتهم ونزلت ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ [رواه النسائي]

---

(١) قال ابن تيمية في هذا الحديث " ضعيف وكأنه مركب على مالك ، لكن معناه ليس ببعيد ، بل هو صحيح من بعض الوجوه" .

ولقد أسلمت هذه النزعة العنصريَّة المقيتة اليهود إلى الادعاء أنهم شعب الله المختار وتحلَّلوا من العهود التي قطعوها على أنفسهم للعرب " الأميين " .

﴿وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾
[آل عمران:٧٥]

فمن اليهود من امتنع عن الوفاء بالعهود ، وجحدوا الأمانات والحقوق؛ بسبب زعمهم الباطل أنهم ليس عليهم حرج أو إثم أو تبعة في استحلال أموال العرب الأميين واستلابها منهم بأية طريقة ، لأن الأميين ليسوا على ملتهم .

واليهود يزعمون أن كتابهم يحل لهم قتل من خالفهم ، كما يحل لهم أخذ ما له بأي وسيلة " (١)

لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى

وبعض العرب في العصر الأموي فاخروا بعروبتهم وسيادتهم على غيرهم من المسلمين من غير العرب وقسَّموا المجتمع إلى طبقات ثلاث وجعلوا أنفسهم على رأس هذه الطبقات وجعلوا العرب المستعجمين موالياً لهم ثم جعلوا العبيد – وإن كانوا مسلمين – في الطبقة الدنيا .

وهذا التقسيم لم يقل به القرآن الكريم ولم يعلِّمه رسوله الأمين إنما القرآن الكريم يقرر.

---

(١) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ٦٤٧ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]

يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأُم واحدة هي حواء، فلا تفاضل بينكم في النسب، وجعلناكم بالتناسل شعوبًا وقبائل متعددة؛ ليعرف بعضكم بعضًا، إن أكرمكم عند الله أشدكم اتقاءً له. إن الله عليم بالمتقين، خبير بهم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة قال : " يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبَيَّةَ الجاهلية – أي تكبرها ، وتعظمها بآبائها ، الناس رجلان ، رجل يرتقى كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله . إن الله – تعالى – يقول : ﴿يا أيها الناس إنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى ..﴾ ثم قال : " أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " .

فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينيَّة إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينيَّة، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضًا، منبها على تساويهم في البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم، كلٌ يرجع إلى قبيلته. " (١)

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٨٥

عن أبي هريرةَ أنه قَالَ : قِيلَ: يَا رسولَ الله ، مَنْ أكرمُ النَّاس ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ . فقالوا : لَيْسَ عن هَذَا نسألُكَ ، قَالَ : فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابنُ نَبِيِّ اللهِ ابنِ نَبيِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ قالوا : لَيسَ عن هَذَا نسألُكَ ، قَالَ : فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلوني ؟ خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإِسْلامِ إِذَا فقُهُوا " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ]

و" فَقُهُوا " أيْ عَلِمُوا أحْكَامَ الشَّرْعِ وعَمَلُوا بِهَا . وكذلك خياركم قبل الإسلام من كل الشعوب خياركم في الإسلام إذا فقهوا .

فعن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: " انْظُرْ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلاَ أَسْوَدَ إِلاَّ أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى . " [رواه أحمد وحسنه الألباني]

رغم أن أبا ذر عربي ، والسود والحمر – غالباً – ليسوا عرباً .

النهي عن الفخر بالجنس الإنساني

يقول النبي ﷺ " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْفَخْرَ بِالآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ فَخْرِهِمْ بِآبَائِهِمْ فِى الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلاَنِ الَّتِى تَدْفَعُ النَّتَنَ بِأَنْفِهَا " [صحيح النسائي وأبو داود]

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسِبَابٍ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَئُوهُ لَيْسَ لأَحَدٍ فَضْلٌ على أَحَدٍ إِلاَّ بِالدِّينِ، أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَذِيًّا بَخِيلاً جَبَانًا." [السلسلة الصحيحة للألباني]

إن اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، تنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل

يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ والكريم حقاً هو الكريم عند الله. وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : ﴿إن الله عليم خبير﴾

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : إلوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله . وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء. وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

وقد حارب الإسلام هذه العصبيَّة الجاهليَّة في كل صورها وأشكالها ، ليقيم نظامه الإنسانيَّ العالميَّ في ظل راية واحدة : راية الله .

وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية : " دعوها فإنها مُنْتِنَة " .

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلاميُّ . المجتمع الإنسانيُّ العالميُّ، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لوناً

من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم .. الطريق إلى الله .. ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة .. راية الله . (١)

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر وقد ضرب ابنه مصريّاً وافتخر بآبائه قائلاً : خذها من ابن الأكرمين . فاقتص منه عمر : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحراراً أمهاتهم ؟

وابن الأكرمين – العرب – ليس كل من لبس الجلباب والغترة وسكن جزيرة العرب فليست العربيَّة بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربيَّة فهو عربيٌّ لا يتميز عليه غيره إلا بالتقوى وحسن العمل والخُلُق وتعمير الأرض .

فالعربيَّة ليست عرقاً ونسباً إنما هي لغة ولسان فمن تكلَّم العربيَّة فهو عربيٌّ وإن لم يكن أصله عربي وإسماعيل أبو العرب كان أبواه أعجميين ولم يكونا عربيين .

أقسام العرب

ويُقسم ابن خلدون العرب إلى أربع طبقات متعاقبة في المدى الزمني: العرب العاربة وهم لبائدة، ثم العرب المُسْتَعْرِبة وهم القحطانية، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج والغساسنة والمناذرة، ثم العرب المُسْتَعْجَمَة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الإسلاميَّة. (٢)

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " دار الشروق ج ٧ ص ٣ .

(٢) راجع تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ .

ويقول الجاحظ " إن العرب قد جعلت من إسماعيل وهو ابن أعجمين – إبراهيم وهاجر – عربيّاً لأن الله فتق لهاته بالعربيَّة المبينة ، ثم فطره على الفصاحة (١)

وعلى ذلك فسكان العراق والشام ومصر وشمال إفريقيا وكل من يتكلَّم العربيَّة هم عرب يجمعون بين فضائل أصولهم العرقيَّة وحضاراتهم الإنسانيَّة وفضائل الإسلام التي لا يجنيها إلا من تعرَّب لسانه ليفهم الدين في نصوصه الأصليَّة وليس من المترجمات ولقد أفسدت المترجمات الديانات السابقة وكانت سبباً من أسباب تحريفها والخروج بها عن هديها فالترجمة خيانة كما يقول المترجمون أنفسهم لذا حفظ الله تعالى القرآن الكريم من التحريف كما حفظ العرب المؤمنون اللغة العربيَّة وآدابها من الفساد عن طريق تأليف معاجم اللغة، وعلم النحو والصرف والبلاغة وعلوم اللغة) وحفظوا الحديث الشريف ونقُّوه مما علق به من موضوع وضعيف عن طريق علوم الجرح والتعديل والرجال.

ولقد ساهم بالجهد الأكبر – ويا للعجيب – في حفظ اللغة العربيَّة وآدابها ونشأة علومها وحفظ الحديث الشريف ونشأة علومه مسلمو العرب المُسْتَعْجَمَة وليس العرب المُسْتَعْرِبَة وهذا يدل على أن الحفاظ على اللغة العربيَّة صيانة للإسلام وليس عصبيَّة جاهليَّة كالتي وقع فيها بعض من تفاخر بعروبته أو بقرشيته .

(٢) نقلاً عن د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص٢٣ .

من الذي صنع حضارة الإسلام

يقول ابن خلدون : " إن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضريَّة وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربي وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم. (١)

ومن تعلَّم العربيَّة من غير العرب تعلَّم العربيَّة الإسلاميَّة التي تحمل الثقافة الإسلاميَّة وتمجد قيمه وتنفِّر من عادات الجاهليَّة المذمومة فاللغة العربيَّة التي تعلمتها الشعوب المُسْتَعْجَمَة لغة الإسلام ذات القيم الدينيَّة والرشاد وليست لغة الجاهليَّة التي ترسخ قيم الجاهلية الأولى ، تعلَّموا لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف ولغة الخلفاء الراشدين وفقهاء الإسلام وعلمائهم ؛ لذا لا عجب أن يقول سيدنا محمد ﷺ على

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٥٤٤ .

سلمان الفارسي " سلمان منَّا أهل البيت " (١) ومن المعلوم أن سلمان فارسيٌّ غير عربي وفي هذا بيان أن رابطة الدين بما تشتمل عليه من قيم إلهيَّة عالميَّة خالدة أهم من الرابطة العرقيَّة المحليَّة العنصريَّة الضيقة .

وكان من الطبيعي أن نجد فهم العرب المُسْتَعْجَمَة – أصحاب الحضارات العريقة – الإسلام فهماً يختلف عن فهم البدوي ، فإسلام العرب المُسْتَعْجَمَة إسلاماً حضاريّاً سمحاً وسطيّاً راقياً بعكس الإسلام البدويِّ المتشدِّد المتطرِّف الشكليِّ العنصريِّ .

وكما أن روافد النهر تعمِّق مجراه وتزيد غزارة مياهه وقوة جريانه لكنها لا تغير مساره ولا تحرفه عنه مصبه فكذلك اختلاط غير المصريين بالمصريين (بالزواج والمعاشرة والاختلاط) قوَّى العنصر المصري وغزَّاه ولم يغيِّر طبيعته وذلك مثل عروبة مصر ثقافيّاً ، أما إسلام مصر فقد ردَّها إلى مجراها الطبيعي الذي فطرت عليه واقتلع الحشائش الضارة التي كانت تعيق الحركة المياه وبعض الجراثيم والميكروبات التي كانت تشوب صفائه وتغير من طعمه ولونه ورائحته لذا أصبحت الشعوب المُسْتَعْجَمَة أنقى عنصراً باختلاطها بالجنس العرب فمن المعروف أن التزاوج من غير الأقارب يقوى النسل بعكس زواج الأقارب .

---

(١) هذا الحديث في رفعه إلى النبي ضعف ، والصحيح وقفه على علي بن أبي طالب .

وهذا يؤكده ما جاء في الأثر " لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاوياً " (١)

" ضاوياً " أي هزيلاً ضعيفاً والذي يقوي هذا الأثر ما ذكره العلم الحديث من أن زواج الغرباء يقوي النسل بعكس زواج الأقارب .

فالاغتراب في الزواج فيه مصلحةٌ؛ حيث إنه يقوِّي النسل ويوسِّع الروابط الأسريَّة والصِّلات بين الناس، والاغتراب يقوِّي النَّسل، وهو ما أكَّده علماء الهندسة الوراثية.

***

(١) هذا الأثر لا يصح مرفوعاً إنما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب قد أضويتم فانكحوا النوابغ كما قال ابن الصلاح .

دعاة المدنيَّة الفرعونيَّة والمدنيَّة العربيَّة

مناظرة بين رشيد رضا ومحمد لطفي جمعة

بعد المؤتمر القبطي الذي عقده دعاة القبطيَّة عام ١٩١١م ، ورد فعل المسلمين الحاسم فاعتبروا بذلك وصاروا يدارون عواطف المسلمين بقدر معلوم ، وتحولَّت دعايتهم عن اسم الجنسيَّة القبطيَّة إلى المدنيَّة الفرعونيَّة ، أيدهم في ذلك بعض السياسيين والمسلمين المتفرنجين ، وأفراد غيرهم من الكتَّاب والمثقفين ونشروا دعوتهم هذه في الجرائد والمجلات المختلفة ، وعقدوا لها مناظرة في كلية الحقوق من الجامعة المصرية في أواخر عام ١٩٣٠م باللغة الإنكليزيَّة موضوعها : أي المدنيتين ينبغي أن تختار مصر : المدنيَّة الفرعونيَّة ، أم المدنيَّة العربيَّة؟

وكان الانتصار فيها للمدنيَّة الفرعونيَّة ، فرأت لجنة المناظرات والمحاضرات في تلك الكلية أن تعقد مناظرة أخرى في هذا الموضوع باللغة العربيَّة ، واختارت محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار لتأييد المدنيَّة العربيَّة ، ظنًّا منها أنه إذا فشل ودحضت حجته لا يُرجى لأنصار المدنيَّة العربيَّة أن تنهض لهم حجَّة على لسان غيره . وطفقوا

يعرضون تأييد المدنيَّة الفرعونيَّة على من يحسنون الحديث عنها ، فيأبونها حتى أجاب دعوتهم إليها الأستاذ محمد لطفي جمعة . (١)

وعُقدت المناظرة يوم ١٢ من شهر ديسمبر ١٩٣٠م ، وكان الرئيس المنظم للاجتماع الأستاذ وحيد رفعت من أستاذِي الجامعة .

دفاع لطفي جمعة عن المدنية الفرعونية

وعن هذه المناظرة يقول رشيد رضا : " كانت الكلمة الأولى لمناظرنا الأستاذ لطفي جمعة فبدأ كلامه بتخطئة لجنة المناظرة في قولها : (المدنيَّة الفرعونيَّة) ، وقرر أن هذا التعبير لا يصح ؛ لأن كلمة (فرعون) لقب لبعض ملوك مصر الأولين ، وقد تولَّى حكم مصر بعدهم ملوك البطالمة وأمراء العرب ، وآخرون لُقِّبوا بالسلاطين ، وآخرون لقبوا بالخديويين ، ثم عادت حكومة البلاد الآن ملكيَّة ، فإذا صح أن تسمى مدنيَّة هذه البلاد فرعونيَّة في عصر جاز أن تسمى في عصور أخرى سلطانيَّة وخديويَّة وملكيَّة ، وهذا ما لا يقول به أحد .

ثم قال : إن لهذه البلاد مَدَنيَّة خاصة يجب أن تسمى (المَدَنيَّة المصريَّة) ، ولا يجوز أن تسمى فرعونيَّة ولا عربيَّة لا في الأزمنة الماضيَّة ولا في هذا الزمن، واحتج على ذلك بأن المصري الذي ذهب

---

(٢) محمد لطفي جمعة (١٨ /١/١٨٨٦- ١٩٥٣/٦/١٥) كاتب ومترجم وروائي ومحامي وناشط سياسي مصري عمل بالمحاماة وأصبح من كبار محاميي عصره كما كان من كبار الكتاب والخطباء والمترجمين كان عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق وكان يجيد الفرنسية والإنجليزية.(مذكرات محمد لطفي جمعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٦، ٤٣) .

إلى بلاد العرب كالحجاز أو غيرها من الأقطار ، يقال : فلان المصري لا العربي . وذكر أن المَدَنيَّة المصريَّة تمتاز على جميع مدنيات الشعوب بمزايا خاصة بالمصريين لا يساويهم فيها أحد . وذكر منها سمرة اللون وخفة الروح وحسن الفكاهة والظرف في النكت المليحة . وأطال في وجوب محافظة المصريين على تسمية مدنيتهم مصريَّة وعدم نسبتها إلى العربيَّة ، وذكر أن تدينهم بالإسلام لا يقتضي أن يكونوا عربًا في مدنيتهم وجنسيتهم ، فإن الإسلام دين عام يشمل جميع شعوب البشر ، وذكر أنه هو يرى – كمسلم مصري أو مصري مسلم – الأخذ بالمدنيَّة المصريَّة . وقد أطال في هذا بفصاحته وبداهته ، بما لا يستطيع كل أحد أن يطيل به لضيق الموضوع وإعوازه الحقائق التي تمدُّه ، وفقده للدلائل التي تثبته .

دفاع رشيد رضا عن المدنيَّة العربية

ولما انتهى الوقت الموقوت له في الكلام وما زاده عليه ، قمت (الكلام لرشيد رضا) فشكرت له إنكاره لنسبة المدنيَّة إلى لقب فرعون ، وقلت : إنني كنت عازمًا على هذا الإنكار فكفاني مؤنته . وأثنيت على فصاحته واستقلال فكره ؛ إذ لم يرضَ لنفسه أن يكابر الحق في المسألة، وذكرت أن جعل سمرة اللون من آيات الجنسيَّة أو المدنيَّة المصريَّة تُخرجه هو ورئيس اللجنة منها ؛ فإنهما أشقران لا أسمران ، ثم أفضت في الموضوع .

وملَّخص ما قلته مع اختصار لبعض المسائل وإيضاح قليل لبعضٍ مع التزام الموضوع : أن مسألة النسبة إلى مصر نسبة إلى بلد هذا

القطر . وكان المعروف عند علمائنا أن العرب الأقدمين كانوا ينسبون الأشخاص إلى أجناسهم النسبيَّة وقبائلهم ، فيقولون مثلاً : قرشي أو تميمي ... إلخ ، وينسبون الأعاجم إلى شعوبهم: كرومي وهندي وفارسي ، والأشياء إلى بلادها كالحبر اليمانيَّة والقباطي المصريَّة.

وكان الأعاجم ينسبون الأشخاص إلى بلادهم فيقولون : مصري وبصري ودمشقي وخراساني مثلاً ؛ لأن الأنساب قلما تحفظ في الأمصار .

وبعد الحضارة الإسلاميَّة تغلبت النسبة إلى البلاد على النسبة إلى القبائل ؛ لأن من شأن الحضارة أن تمزج القبائل الكثيرة والأجناس الكثيرة في مصر واحد ، وإنما تحفظ الأنساب في أطوار البداوة .

والنسبة إلى مصر الآن عندما نقول : فلان مصري . يراد بها الجنسية السياسيَّة التي تُنال بالإقامة وقبول الحكومة ، لا النسبة إلى جيل من سكان هذا القطر كالقبط والعرب ، فكل مَن له حق الجنسيَّة المصريَّة الآن يقال له : مصري (وإن كان غير المسلم والقبطي منهم قد يُنسب أيضًا إلى أهل ملَّته كاليهودي أو جيله كالرومي) .

إن المدنية قوامها اللغة والفنون والصناعات والثقافة المعنوية من العقائد والتشريع والآداب .

فنحن إذا نظرنا إلى أن المصريين القدماء يمتزجون بالعرب وأن بعض العلماء يقول إنهم كلهم أو أصلهم من العرب ، ولم نستطع ترجيح هذا القول على ما قبله فإننا نجزم قطعًا بأن المصريين بعد الفتح

الإسلامي قد امتزجوا بالعرب المسلمين وغلبت عليهم الحضارة العربية بجميع مقوماتها ومشخصاتها ، فلغتهم كلهم عربية ، ودين السواد الأعظم منهم هو الإسلام الذي هو ينبوع ثقافة الآداب والتشريع .

وإذا أردنا المقارنة بين المدنيَّة العربيَّة الإسلاميَّة وما يسمى المدنيَّة الفرعونيَّة – والمراد بها القبطيَّة – وأردنا أن نرجح بين المدنيتين فإننا نقول : إن مدنيَّة الفنون والصناعات تختلف باختلافات الأزمنة وحاجات البشر فيها ، فالفنون والصناعات التي رقَّاها الأوربيون من وسائل المعايش والتنقلات كالسكك الحديدية وغيرها لا يصلح للبشر في ارتقائهم المدني في هذا العصر غيرها (على أن المباني العربيَّة أجمل من الإفرنجيَّة والفرعونيَّة ، ولا يوجد أمَّة في هذا العصر تسفِّه نفسها ببناء أهرام كأهرام الجيزة !) .

فيبقى النظر في اللغة والثقافة المعنويَّة ، فأما اللغة فلا يمكن أن يقال : إنا نؤْثِر اللغة الهيروغليفيَّة على العربيَّة ؛ لأنها لغة ميتة ذهبت عينها وبقيت آثارها ، وليس فيها مزيَّة توجب إحياءها واستبدالها بالعربية لو كان ممكنًا .

وأما الدين فدين الفراعنة كان وثنيًّا ، ودين السواد الأعظم من المصريين الإسلام وتليه النصرانية فاليهودية ، ولا يرضى أحد من المصريين أن يرجع إلى دين الفراعنة الوثنيين فيعبد العجل (أبيس) وغيره من آلهتهم .

فأساس العقائد الإسلاميَّة التوحيد ، ومن مقتضاه أن لا يخضع البشر ولا يذلوا إلا لله تعالى خالقهم ورازقهم ولا يخافوا سواه .

وأما الفرعونيَّة فأساسها عبادة البشر والبقر والثعابين وغيرها !

وكفاكم ما قصَّه الله تعالى من قول فرعون موسى عليه السلام لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرِي﴾ [القصص : ٣٨] وقوله : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات : ٢٤] وقوله : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف : ٥٤] ؛ أي حملهم على الخفة والجهل ؛ أي السفه ، وأي قوم يسفهون أنفسهم في هذا العصر فيعبدوا ملكهم ويقبلوا استبداده فيهم باختيارهم ؟!

وأما التشريع – وهو الذي يهم إخواننا طلبة الحقوق بوجه خاص – فأساس التشريع الإسلامي السياسي والمدني والعسكري فيه مبني على أن السلطة للأمة بنص قوله تعالى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى : ٣٨] ، وقوله لرسوله : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩]، فأنتم ترون أن الله أمر نبيه المعصوم أن يشاور الناس في المصالح العامة ، فكان يشاورهم ويعمل برأيهم ولو خالف رأيه ؛ كما فعل في غزوة بدر وغزوة أحد (وقد ذكرت بعض الشواهد على ذلك) .

وحسبكم من التصريح بسلطة الأمة في الإسلام – الخطبة الأولى للخليفة الأول أبي بكر الصديق ؛ فإنه بعد مبايعته بالخلافة صعد منبر الرسول ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أما بعد فقد وُليت عليكم ولست بخيركم ، فإذا استقمت فأعينوني ، وإذا زغت – أي اعوججت – فقوموني) .

فهو قد صرَّح بأن الأمَّة لها الحق أن تقوِّم حاكمها العام إذا اعوج وخالف مصالحها وشريعتها ، (وتبعه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب

في هذا التصريح الرسمي ، فقد اشتهر قوله على المنبر : مَن رأى فيكم عوجًا فليقومه . وما أجابه به أعرابي من تقويمهم إياه بسيوفهم) ؛ فسلطة الأمة إنما جاء بها الإسلام وعنه أخذها الأوربيون ، ومنهم ومن المسلمين مَن يجهل هذا ، ومنهم من يعرفونه وهم له جاحدون !

إن مدنيَّة العرب الحديثة – أي الإسلاميَّة – قد اعترف بها كثير من علماء الإفرنج على اختلاف أجناسهم ، وألَّف بعضهم فيها كتبًا مشهورة، منها كتاب (سيديو) (خلاصة تاريخ العرب) وهو مترجم بالعربية ومطبوع ، ومنها كتاب (حضارة العرب) لجوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي الشهير . وهو كتاب ضخم ترجمه محمد بك مسعود المشهور ، وربما ينشر قريبًا .

وإن كان بعض الشعوبيَّة المبغضين للعرب يدَّعون أن مدنيَّة العباسيين في الشرق قد اشترك فيها العجم مع العرب . والحق أن العرب هم الذين أوجدوها ، وبلُغتهم انتشرت علومها وفنونها ، فهذه آثار هذه المدنية في الأندلس – ولا سيما قصر الحمراء وبقية جامع قرطبة – آثار ماثلة مشاهَدة تفقأ عيني كل مكابر منكر لمدنية العرب من الغربيين وغيرهم ، فالذين أحدثوا تلك المدنية الباذخة كلهم من العرب الأقحاح الخلص المعروفة أصولهم وقبائلهم في كتب التاريخ .

وقد قال الدكتور جوستاف لوبون في كتابه (تطور الأمم) ما معناه: إن ملكة الفنون لم تستحكم لأمة من الأمم المتحضرة في أقل من ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة وجيل الاستقلال ، وشذ العرب وحدهم فاستحكمت لهم ملكة الفنون في جيل واحد !

وأخبرني صديقي محمود بك سالم الشهير من عهد بعيد أن لديه كتابًا باللغة الفرنسية ألَّفه بعض علماء أوربة وسماه (فسيولوجيا الأمم) يبحث فيه عن البنية البشريَّة في الشعوب المختلفة ، وقد أثبت فيه أن بنية الشعب العربي أكمل البنى . وقد نسيت اسم هذا الكتاب ، ولعلنا نسأله عنه ، وهو في باريس الآن .

وأما مدنيَّة العرب من حيث الثقافة الدينيَّة فهي مبنيَّة على إصلاح النفس البشريَّة عقلاً وأخلاقًا ؛ لأن النفس البشريَّة متى صلحت فهي تُصلح كل شيء ، وإصلاح النفس البشريَّة له أساسان : (أحدهما) استقلال الفكر وحرية الوجدان (والثاني) عزَّة النفس وقوة الإرادة .

وكانت العرب قبل الإسلام أعظم أمم الأرض استعدادًا لهذا الإصلاح؛ فإن من المعلوم عند جميع المطَّلعين على تواريخ الأمم أنها كانت قبل ظهور الإسلام مستعبَدة للملوك ولرؤساء الأديان ، فلا حرية لفرد منها في دينه ووجدانه ، ولا في إراداته ، وقد فصلت هذا في مجلة المنار وأجملته في (خلاصة السيرة المحمدية) .

وأما العرب – ولا سيما عرب الحجاز– فلم يكن لهم ملوك مستبدُّون يستعبدونهم، ولا رؤساء أديان يحملون على ما يقررونه في الدين وإن لم يعقلوه ، فضلاً عن كون عقولهم تنكره وتأباه ، وبهذا كانوا أشد استعدادًا للإصلاح الإسلامي على بداوتهم من شعوب المدنيَّة المعاصرة لهم ، فجاء الإسلام في عقائده وفي تشريعه مكرِمًا للنفس البشريَّة ، ومعليًا لشأنها ، فهو لا يحكم على البشر بأن يذلوا ويخضعوا لأحد إلا لخالقهم، حتى إن الرسول المعصوم قد خاطبه الله في نصوص القرآن بمثل قوله

: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية : ٢١ – ٢٢] وقوله : ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق : ٤٥] وقوله : ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى : ٤٨] ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الفرقان : ٥٦] أي إنما أرسلناك معلمًا مربيًا لا مسيطرًا ولا قهَّارًا .

(وأما المدنيَّة الفرعونيَّة فقد كانت تستعبد البشر وتذلهم ، كما فعلت ببني إسرائيل وغيرهم ، وهذه الأهرام – التي هي أظهر آثارهم – حجة عليها وعليهم ؛ فقد كانوا يسخِّرون في بنائها مئات الألوف الخاضعين لهم) .

وقال تعالى – في حرية العقيدة والدين – : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، فبهذه العقائد والآداب والحكم خرج عرب الجاهلية من بداوتهم وجهلهم ، وفتحوا الممالك بالعدل والفضيلة والآداب ، لا بالقهر والظلم والإذلال ، فإن ملكهم قد امتد في قرن واحد من شواطئ المحيط الغربي (الأطلنطي) إلى حدود الصين ، وأوجدوا مدنية جديدة جمعت بين الدين والدنيا كما أرشدهم القرآن في آياته الكثيرة .

ومن المعلوم أنه لم يكن في بلاد العرب قواعد حربية تُخرج الجنود ، وتمدها بالذخائر ، والمؤن من الشرق إلى الغرب ، وإنما كانت قوتها العدل والفضائل الإسلامية .

فهذا مجمل وجيز من مدنية الثقافة الإسلامية التي ينكرها بعض الجاهلين والمكابرين ، ويماري فيها بعض الملاحدة المتفرنجين .

وبقاء انتساب مصر إلى العربيَّة يحفظ لها هذه الرياسة على الشعوب العربيَّة الكثيرة ، ولها من ذلك فوائد سياسيَّة وأدبية واقتصاديَّة كبيرة ، وتبرُّؤها من العربيَّة وانتسابها إلى الفرعونيَّة ليس فيه أدنى فائدة لمصر لا ماديَّة ولا معنويَّة .

وقد قام بعدي مؤيد الفرعونيَّة ، فألقى كلامًا شعريًا مبهَمًا في المدنية الفرعونيَّة يظهر أنه كان مكتوبًا محفوظًا فلم يستطع الخروج عنه ، وقد أراد هذا الخروج فلم يكن إلا خروجًا عن آداب المناظرة ، حتى صاح به السامعون : اسكت ، اسكت ، انزل انزل ، تكلمْ في الموضوع .

وفي الختام أُخذت الأصوات فكانت الأكثرية الساحقة مؤيدة لنا في تفضيل المدنيَّة العربيَّة واختيارها ، وظهر من الهتاف لنا والتصفيق أن السواد الأعظم معنا يرجح المدنيَّة العربيَّة من كل وجه .

ثم طلب الرئيس من المستمعين أن يخرج المرجِّحون للعربيَّة من باب النادي الذي عن يميننا ، ويخرج المرجِّحون للمدنيَّة الفرعونيَّة من الباب الذي عن شمالنا ، فتأكد بذلك أن الأكثريَّة الساحقة من أصحاب اليمين، والظاهر أن أكثر أصحاب الشمال من القبط ، وأقلهم من المسلمين الغافلين ، وأما الذين أخذوا منهم بطائق التصويت وكتبوا عليها رأيهم فكانت نسبة الترجيح لنا منهم أقل من الواقع ، ذلك بأن الهيئة الإداريَّة التي تولَّت الإحصاء لها أعلنت أن المؤيدين للعربية منهم ١٨٧ صوتًا تجاه ١٠٣ في جانب الفرعونيَّة .

ولما فرغنا من المناظرة أقبل الناس فُرادَى وثُبات يهنئونني بالفلج والظفر ، ويدعون الله لي بما يناسب المقام ، ولله الحمد على توفيقه (١).

الرد على رشيد رضا

وليسمح الشيخ الجليل رشيد رضا أن أصحِّح له بعض المعلومات التي ربما لم تكن متوفِّرة لديه عندما قال ما قال في هذه المناظرة ، لقد خلط رشيد رضا بين المصريين الذين يمتدُّ نسبهم إلى القدماء المصريين والذين يمثلون نسبة ٧٩% من سكان مصر ممن يحملون جنسيتها كما دلَّت الأبحاث التي أجريت على جينات المصريين ، وبين من يحملون الجنسيَّة المصريَّة من غير المصريين ؛ لبيان أن ليس هناك شعب مصريٌّ له سمات تميزه عن سائر الأمم والشعوب ، إنما المصريون عرباً ككل العرب بل زعم أن المصريين القدماء جاءوا من أصل عربي، وإن كان هذا الرأي لا يستطيع ترجيحه إنما الذي يستطيع أن يجزم به أن المصريين بعد الفتح قد فنوا في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة كما فنى غيرهم من العرب وهذا ما سوف نتبين خطؤه عندما نعرض لسمات لشخصيَّة العرب المُسْتَّعْرِبَة ، والشخصيَّة المصريَّة .

ثم يقارن ، الشيخ رشيد ، بين المَدَنِيَّة العربيَّة الإسلاميَّة والمَدَنِيَّة الفرعونيَّة من حيث العلوم والفنون فيرجِّح علوم وفنون المدنيَّة العربيَّة الإسلاميَّة لأنها أحدث والجديد في العلوم والفنون يَجُبُّ ما قبله ،

---

(١) رشيد رضا " مجلة المنار " مناظرة في الجامعة المصرية في المدنيتين الفرعونية والعربية (وأيتهما تختار مصر هذا العصر ؟!) ج ٣١ ص ٤٦٥ عدد يناير ١٩٣١م

والحقيقة إن الحضارة المصريَّة القديمة حضارة مُعْجِزَة في العلوم والفنون وهي أمُّ الحضارات الإنسانيَّة قاطبة ولقد فشلت الأمم أن تكشف أسرارها فضلاً عن أن تصنع مثلها ، أما الحضارة الإسلاميَّة فإن الذين صنعوها هم العرب المُسْتَعْجَمَة وفي مقدمتهم مصر ولم يشارك فيها العرب المُسْتَعْرِبَة إلى بالنزر اليسير كما سيأتي بيانه .

أما تفضيل المدنيَّة العربيَّة على المصريَّة بسبب أن لغة العرب بقيت واللغة الهيروغليفية ماتت ، فالحقيقة إن بقاء اللغة العربيَّة كان بسبب اختيار الله تعالى لها لينزل بها آخر كتبه القرآن الكريم ولقد حافظ المسلمون ، وجلُّهم من العرب المُسْتَعْجَمَة ، على لغة القرآن فألفوا علومها : النحو والصرف واللغة والمعاجم وكتبوا بها مؤلفاتهم العظيمة الباقية .

أما عن أن المدنيَّة العربيَّة دينها الإسلام بعكس المدينة المصريَّة فدينها الوثنيَّة فالحقيقة أن الإسلام ليس ديناً عربيّاً أرسله الله للعرب خاصَّة إنما ديناً إلهيّاً أرسل الله تعالى به محمداً ﷺ للعاملين يقول تعالى

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨]

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

أما ديانة المصريين القدماء فلم تكن الوثنيَّة كما زعم رشيد رضا إنما كانت ديانة توحيد منذ سيدنا إدريس النبي المصري ثالث نبي أرسله الله تعالى بعد آدم وشيث أي منذ أكثر من عشرة آلاف سنة ، كما سيأتي بيانه .

وفي حديث رشيد رضا عن نظام الحكم في المَدَنِيَّة العربيَّة لم يتحدَّث عن المَدَنِيَّة العربيَّة إنما تحدَّث عن الإسلام الذي جاء بحرية العقيدة والأمر بالشورى ، في مقابل المَدَنِيَّة المصريَّة التي بنيت على قهر واستعباد ، ونحن نعذر الشيخ رشيد ربما لم يسمع في حينه عن قانون ماعت الذي حكم به ملوك مصر والذي بسببه أطاعهم المصريون ، وهو الذي ينسف نظرية بناء المصريين لحضارتهم بالسخرة والقهر والعسف ، كما سنذكر لاحقاً .

والحقيقة أن رشيد رضا قد خلط بين سمات العرب وخصائص الإسلام ففي حديثة عن العرب تكلَّم عن الإسلام وفي حديثه عن الإسلام تكلَّم عن العرب ، ولم يفرِّق بين أنواع العرب : المُسْتَعْرِبَة ، والمُسْتَعْجَمَة ، ونحن – المصريين – وإن كنا نعتز بأرومتنا المصريَّة وبتاريخنا التليد وحضارته العظيمة التي بنيت على التوحيد فإننا نؤمن بالإسلام وبمحمد خير الأنام ، ولا نتنكَّر للعربيَّة لغةً وثقافةً ومقوِّماً أساسياً للوحدة العربيَّة المنشودة ، ولكن هذا لا يجعلنا عرباً مُسْتَعْرَبَة (عرب الجزيرة العربية واليمن) إنما نظلُّ عرباً مُسْتَعْجَمَة ، وإن كان العرب المُسْتَعْرِبَة كان لهم الفضل في الفتوح الإسلاميَّة ونشر الإسلام ، فإن العرب المُسْتَعْجَمَة قد قامت ببناء الحضارة الإسلاميَّة التي يفاخر بها الشيخ رشيد رضا وهو ما سوف نفصل القول فيه في أحد فصول هذا الكتاب .

هل مصر فرعونيَّة لحماً ودماً أم هي عربيَّة قلباً وقالباً ؟

وكما أن رشيد رضا قد سجَّل لنا مناظرته السابقة في مجلة المنار فإن من المفارقات الطريفة أن الأستاذ لطفي جمعة قد سجَّل أيضاً في

أحد كتبه مناظرة أو مساجلة بحثيَّة حول " هل مصر فرعونيَّة لحماً ودماً أم هي عربيَّة قلباً وقَالَباً ؟ " دارت بين أديب سيوطي هو ناشد سيفين ، وشيخ صوفي هو التفتازاني .

يقول لطفي جمعة : " الأديب السيوطي ينادي بأن مصر فرعونيَّة لحماً ودماً ولو كره التفتازاني ، والشيخ يصرُّ على أنها عربيَّة قلباً وقالَباً ولو كره سيفين . فالأوَّل بطل الفرعونيَّة الأولى ونصيرها ، والثاني زعيم العروبة ومعضِّدها ، وقد تقدَّم كلٌّ بأدلته يدحض بها حجج خصمه ويردُّها وقد يتحامل أثناء الجدل شأن كل متشدِّد في فكره .

وفي ظنِّي أن الأديب السيوطي كيمائي صيدلي وهو يحسن مزج الكلام ما يحسن صنع الدواء وهو متحمِّس لفرعونيَّة مصر التحمُّس كلَّه، فهو تارة يلجأ إلى أدلة علميَّة مبسطة من تحليل دماء المصريين ليثبت وحدة النسب بين القبط ومجموع السكان ، وطوراً يؤكِّد أن الثابت من التاريخ ومن الدليل العلمي أنه لم يحصل اختلاط بين المصريين والعرب إلا قليلاً ، وأنه ليس لهذا الاختلاط أثر باق إلا في القليوبيَّة والجيزة والقاهرة .

وقد يزداد أسلوب ناشد غلياناً فيرمي الشيخ بالجمود وينعي عليه تسميته الآثار أطلالاً وثنيَّة وأعلاماً كفريَّة .

ولم يقصِّر الشيخ في مجادلة الفاضل الكيميائي بما يقرب من هذا أو أشد فقال له: " لو كانت هذه الآثار مدعاة لنسبة الأمم لأصحابها لكانت الشام مصريَّة فرعونيَّة أيضاً لأن آثار جبيل وغيرها من المكتشفات في لبنان وسوريا تثبت أنه كان هنالك مجد عربي فرعوني " .

وفـي رأينـا – والكـلام مـا زال للطفـي جمعـة – أن كـلا المتنـاظرين مخطـئ لأنـه متعصِّب لفكرتـه . فالأديـب السيوطي يريـد محـو النسب العربي مع أنه هو والسادة آباؤه وأجداده نشئوا في المَدَنيَّة العربيَّة وأكبر دليل على ذلك أنه الآن يكتب ويفكِّر باللغة العربيَّة بل يحسن التفكير والإنشاء بها كأحد الأدباء المتمكِّنين .

ولست في حاجة إلى التدليل على مكانة اللغة من عقل الرجل المتعلِّم. كذلك الشيخ متعصِّب لأنـه لا قيمة لأمَّة شرقيَّة كانت أو غربيَّة بغير ماضيها ، وماضي مصر من مفاخر الدنيا لأنها مهد الحضارة ومعلِّمة الأمم وفيها بزغ فجر المَدَنيَّة (١)

أعداء الحضارة المصريَّة القديمة

ومن المفارقات غير اللطيفة أن لطفي جمعة الذي قال : " ماضي مصر من مفاخر الدنيا لأنها مهد الحضارة ومعلِّمة الأمم وفيها بزغ فجر المَدَنيَّة " انتكس بعد ذلك على فكرته في الدعوة إلى المَدَنيَّة المصريَّة وتبنَّى المدنيَّة العربيَّة وهاجم التاريخ المصري القديم هجوماً شديداً واتَّهم حكام مصر بالتألُّه والطغيان وتسخير الشعوب لبناء أمجاد شخصيَّة !

يقول لطفي جمعة : " أبادر فأصرح بأنني أدين بعروبة مصر ، لا من حيث خُلُقَها وعاداتها وأدبها ولغتها وعقيدتها فحسب ، بل من حيث تاريخها الحديث وتكوينها العصري ، وإنني لا أكره أن يتذَّكر المصريون

---

(١) محمد لطفي جمعة " مباحث في التاريخ " دار عالم الكتب ص ١٥١ ، ١٥٢

من حين إلى آخر أنهم يعيشون في بلاد ذات تاريخ مجيد عاش فيها شعب أسير تحت سيطرة ملوك أقوياء، وأن أثار هذا الشعب في العلم والدين والآداب والحروب والحضارة الماديَّة وفنون العمارة تُذْكَر فَتُشْكَر .

ولكن لا يجوز للأحياء والمعاصرين أن يتفانوا أو يتلاشوا في الفكرة الفرعونيَّة ، لأنهم ليسوا محتاجين في استيحاء العظمة القوميَّة إلى ذكريات الفراعنة ؛ لسبب هيِّن سهل الإدراك وهو أن الشعب كان في العهود الفرعونيَّة ذليلاً مهضوم الحقوق.

لقد ثبت لنا أنه من واجبنا نحو العروبة أن ننصرف عن ذلك الماضي السحيق الذي يمتدُّ أربعين قرناً كما قدَّره علماء الآثار وأن نغلق كتاب الذكرى بأفراحها وأتراحها لنبحث بعين الحقيقة فيما توحيه عظمة العرب من نضارة وتألُّق ، فإن لنا منها ماضياً جليلاً ومستقبلاً حافلاً بالآمال ، ونرى لزاماً علينا أن نرجع بالوطن إلى الأصل العربي . فإن اندفاع الأمَّة وراء الفرعونيَّة إنما هو جرى وراء سراب لا يمكن أن يكون فيه إلا الغثُّ . وإن الفرعونيَّة دُفِنَت واستقرَّت في جوف الأرض ولن تبعث إلا على أفواه المؤرخين وفي صفحات الكتب .

أيَّة عظمة في تاريخ مصر القديمة تفيد الشعوب المظلومة في ضوء عصور الحرية الحديثة ؟

لقد كان الفرعون أو الملك مصدر السلطات وصاحب الأمر وحده ، ونحن نقول الآن إن الأمَّة مصدر السلطات وهذه فكرة عربيَّة (وأمرهم شورى بينهم ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، أكرمكم عند الله أتقاكم) وكان الفراعنة يطالبون الشعب بأن يعبد كلاً منهم طول مدة حكمه بوصفه إلهاً.

ولولا هذا السلطان الواسع للفراعنة على الشعب لم يكن لهؤلاء الظالمين استخدام الأمَّة بأسرها في بناء الأهرام ، لا لشيء إلا لموارة أجسامهم بعد موتهم ، ولا من إرسال جيوش جرَّارة إلى الأقطار المجاورة يقطعون الصحراء للفتح ، وفوق هذا كانت المراكز الكبيرة في يد نفر من الناس ذوي الثروات الواسعة ، وبقيت من بعدهم لخلفائهم ، وفي كثير من الأحيان كان بعض هؤلاء يرثونها ضمن ما يرثونه من آبائهم من ضياع وأموال . (١)

الرد على أعداء الحضارة المصريَّة القديمة

ونقول لكلِّ جاهل بتاريخ مصر العظيم ، وبحقيقة الحضارة المصريَّة القديمة : إن اندفاع المصريين لدراسة الحضارة المصريَّة القديمة ليس جرياً وراء سراب كما زعم لطفي جمعة وأمثاله إنما سعي وراء العلم والمعرفة ولقد سبقنا في السعي إليه جميع البلاد المتطوِّرة فجنوا منها النافع السمين في شتى العلوم والمعارف ، ولم ير فيها أمثال لطفي جمعة إلا الغث ؛ فأصبحنا عالة على الغرب الذي سبقنا إلى معرفة قيمة حضارتنا !

إن مَثَل لطفي جمعة وشيخه الصوفي وغيرهما مع آثار مصر القديمة ومَثَل الغرب المتقدِّم معها كمَثَل المصريين قبل عصر النهضة مع حجر رشيد فلم يروا فيه إلا حجراً مرقوماً في حين أن العلماء الفرنسيين رأوا فيه كَنْزنا مدفوناً .

(١) محمد لطفي جمعة " مباحث في التاريخ " دار عالم الكتب ص ١٥١ ، ١٥٢

الدستور الأوربي أصله مصري

إن بداية عصر النهضة الأوروبيَّة كانت بإحياء الحضارة اليونانيَّة التي أخذت علومها ومعارفها من الحضارة المصريَّة القديمة .

أما قول لطفي جمعة : " أيَّة عظمة في تاريخ مصر القديمة تفيد الشعوب المظلومة في ضوء عصور الحرية الحديثة ؟! " فليعلم لطفي جمعة وهو المحامي الشهير المفتون بالدساتير الأوروبيَّة والحريات الغربيَّة الحديثة أن الحريَّة التي تنعم بها أوروبا إنما هي ثمرة من ثمرات الحضارة المصريَّة القديمة ، وأن دساتيرها وقوانينها إنما هي من بعض ما تعلَّموه من قوانين مصر القديمة .

لقد جاء "سولون" إلى مصر عام ٥٩٥ ق.م وقال: أخذني أحد الكهنة إلى بيت أفلاطون الذي أقام فيه، وقال لي: هنا.. علَّمْنا أفلاطونَ الفلسفة في مصر طوال ١٣ عاماً ! ثم ربت على كتفي قائلاً: أنتم أيها اليونانيون أطفال بالنسبة لنا !

وقد أقرَّ أفلاطون بفضل مصر عليه حين ترك لنا في كتابه القوانين قوله : " ما من علم لدينا إلا وقد أخذناه عن مصر. "

جاء "سولون" من أثينا، ليدرس القانون في مصر القديمة .. هذا القانون الذي يقول عنه الدكتور محمود السقا، والدكتور محمد أبو سليمة: كان القانون المصري القديم ، مثاليّاً في قواعده عادلاً في أحكامه، عالميّاً في مراميه، بُني على العدل والأخلاق وشتَّى الفضائل، كان علامة من علامات التكوين الحضاري التي كانت فطرة المجتمع المصري التي فُطر عليها .

أخذ " سولون " القانون المصري المعروف بقانون "بوكخوريس" [1] وعاد إلى أثينا، ووضع قانوناً باسمه ألا وهو " قانون سولون" ! ومرت السنون وذهبت لجنة رومانيَّة تُدعى " لجنة الأشراف " من روما إلى اليونان؛ لدراسة قانون سولون المبنى على قانون "بوكخوريس" المصري، ووضعوا أسس القانون الروماني المعروفة بموسوعة جوستنيان، قانون الألواح الاثنى عشر ، ومرت القرون وجاء نابليون بونابرت لينهل من القانون الروماني ويضع قانوناً باسمه: قانون نابليون!! وتمر الأعوام وتأتى مصر لتضع قوانينها في العصر الحديث المستمدَّة من القانون الفرنسي !

ويصدق فينا قول إخوة يوسف عندما اكتشفوا أن بضاعتهم التي اشتروا بها القمح من مصر قد رُدَّت إليهم ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾.

قانون ماعت

كانت مصر هي أول من وضعت: العدل أساس الملك.. وأن الحاكم يحيا بأعماله العادلة، وكان الملك يقدِّم تمثالاً لربة العدالة " ماعت " كلَّ سنة، تذكيراً له بأن العدل هو أساس الحكم . كما كان كل قاضٍ يضع حول عنقه تمثالاً لربة العدالة " ماعت " وهذه رسالة من أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة لأحد وزرائه : " حافظ على القانون واحرص على أن يتمَّ كلُّ شيء طبقاً للقانون، حتى يصل كلُّ شخص إلى حقِّه "

بينما كان قانون حمورابى (البابلي).. تختلف الأحكام به حسب الطبقة لاجتماعيَّة!

([1]) قانون بوخوريس : أصدره الملك " بوخوريس " أحد حكام الأسرة ٢٤ من ٧١٨-٧١٢ ق .م جمع فيه النظم والقوانين التي كانت سائدة قبله مع إضافة بعض التعديلات .

كُتِبَ القانون المصري القديم بصيغة بلاغية في منتهى الإتقان، عبارات واضحة سليمة ومختصرة، كان القانون يصاغ في محكمة العدل المسماة " دار حوريس الكبرى" .

بعد هذا كله يدَّعي محمد لطفي جمعة وغيره أن كلَّ حكام مصر القدماء كانوا ظالمين ، وأنهم استعبدوا الشعب المصري وسخَّروه في بناء الأهرام ليدفنوا فيها جثثهم (١) وفي الحروب ليوسعوا بها ملكهم (٢) **!!**

ويردُّ أمير الشعراء أحمد شوقي على مثل هؤلاء فيقول :

زَعَموا أَنَّها دَعائِمُ شيدَت بِيَدِ البَغيِ مِلؤُها ظَلماءُ
فَاعذُرِ الحاسِدينَ فيها إِذا لاموا فَصَعبٌ عَلى الحَسودِ الثَناءُ
أَينَ كانَ القَضاءُ وَالعَدلُ وَالحِكمَةُ وَالرَأيُ وَالنُهى وَالذَكاءُ
وَبَنو الشَمسِ مِن أَعِزَّةِ مِصرٍ وَالعُلومُ الَّتي بِها يُستَضاءُ
فَادَّعَوا ما ادَّعى أَصاغِرُ آثينا وَدَعواهُمُ خَنًا وَافتِراءُ
وَرَأَوا لِلَّذينَ سادوا وَشادوا سُبَّةً أَن تُسَخَّرَ الأَعداءُ
إِن يَكُن غَيرَ ما أَتَوهُ فَخارٌ فَأَنا مِنكَ يا فَخارُ بَراءُ (٣)

***

---

(1) لم يُبْنَ الهرم الأكبر كمقبرة يدفن فيها الملك إنما الهرم الأكبر بُنِيَ كمرصد ، والمصريون القدماء أطلقوا عليه " برامس " وهو الاسم الذي حرَّفه الإغريق إلى بيراميدس عندما نقلوه بالسمع عن طريق المترجمين وبالكشف عن معنى كلمة " بيرامس " في اللغة المصرية القديمة وجدناها تعنى المرصد وقد ورد اسم برامس في وثائق وبرديات كتب العقيدة بوصفه نافذة مخاطبة السماء أو مرصد مخاطبة السماء وتلقي تعاليم الرسالة . راجع كتاب د. سيد كريم " لغز الهرم الأكبر " نهضة مصر للطباعة النشر ص٧

(2) لم تكن الحروب التي خاضها حكام مصر في عهد الحضارة المصريَّة القديمة إلا حروباً دفاعيَّة ولم تكن أبداً حروباً توسعيَّة لزيادة نفوذ الحكام واتساع ملكهم كما زعم لطفي جمعة .

(3) انظر مقال د. وسيم السيسي " القانون الوضعي أصله مصري " المنشور في منتدى روح القانون بتاريخ ٢٧ /١١ /٢٠١٠ .

دعاة القوميَّة العربيَّة : الفكرة والتطبيق

الاتجاه الثالث الذي ظهر إبان النهضة المصرية في بداية القرن العشرين هو اتجاه القوميَّة العربيَّة أو العروبة وهذا الاتجاه يؤمن بأن الشعب العربي شعب واحد تجمعه اللغة والثقافة والتاريخ والجغرافيا والمصالح كما يؤمن بأن دولة عربيَّة واحدة ستقوم لتجمع العرب ضمن حدودها من المحيط إلى الخليج .

أصل فكرة القومية

ولقد تبنت فكرة القوميَّة كثير من الدول الغربيَّة لتتوحَّد ضد أعدائها ، وتقوم فكرة القوميَّة على مجموعة مِن الأساطير، سواء فِي ذلِك القوميَّة السلافيَّة، والألمانيَّة، والفرنسيَّة، والإيطاليَّة، وسائر القوميَّات الأخرى، فكل همِّها هو أن تجد "منابع" لِلأصلِ المشترك، مِن أجل تبرِير "سِياسة" تنتهجها، وهي منابع : الاشتِراك فِي الدم، والملحمة التاريخيَّة، والرباط الجسدِي بالأرض. (١)

(1) راجع رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني الفصل الثاني " القومية الأوربية وَالْقَوْمِيَّة الصهيونية " .

رواد القومية العربية

تشكَّلت القوميَّة العربيَّة مع نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين أو عصر القوميَّات كما يسميه البعض. كان من رواد حركة القوميَّة العربيَّة مفكِّرون من أمثال قسطنطين زريق وساطع الحصري وزكي الأرسوزي وعبد الرحمن عزام، تجلَّت القوميَّة العربيَّة في أوجها بالثورة العربيَّة الكبرى التي قادها الشريف حسين من مكة، لكن الآمال المعقودة على الحصول على دولة الوحدة تقوَّضت بأسرها بعد عقد فرنسا وبريطانيا اتفاقية سايكس بيكو والتي قسَّمت إرث الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وبخاصة المشرق العربي.

جسَّدت هذه الفكرة بأيديولوجيات مثل الحركة الناصريَّة والتيار البعثي اللذين كانا الأكثر شيوعاً في الوطن العربي خصوصاً في فترة أواسط القرن العشرين حتى نهاية السبعينات، والتي تميَّزت بقيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا وشهدت محاولات وحدوية أخرى كثيرة. اكتسبت القوميَّة العربيَّة مدّاً جديدًا شعبيّاً نتيجة الثورات العربيَّة وظهور تيار شعبي عربي يدعو لوحدة عربيَّة يقودها الشعب، لا الأنظمة المتسلِّطة التي ركبت موجة القوميَّة دون أن تنجز شيئاً يذكر في هذا الاتجاه .

سنوات ازدهار القومية العربية

وندع د. عاصم الدسوقي وهو من الكتَّاب الناصريين المؤمنين بالقوميَّة العربيَّة يحدثنا عن سنوات ازدهارها وأكبر دعاتها : " إن

السياسات التي اتبعتها حكومة ثورة يوليو خلال الخمسينات والستِّينات أدَّت إلى تحديد مفاهيم الفكر السياسي والاجتماعي للسلطة الحاكمة ، فأصبحت العروبة وفي القلب منها مشكلة الفلسطينيين منهجاً أساسيّاً في سياسة الحكم وعلى أساسها تحدَّدت علاقات مصر الخارجيَّة. وفي هذا الإطار نص دستور ١٩٥٦ في مادته الأولى على أن "مصر دولة عربيَّة مستقلة ذات سيادة والشعب المصري جزء من الأمَّة العربيَّة" ، وهو أمر كان جديداً على الحياة المصرية إذ لم تكن العروبة جزء من سياسة الحكم رغم عضوية مصر في جامعة الدول العربيَّة ودورها في وضع النظام الأساسي للجامعة.

كيف سادت مقالات العروبة ؟

على أن الصوت المسموع والأعلى على الساحة كان للعروبة بتأثير النهج الرسمي للدولة مع ثورة يوليو ١٩٥٢، أما الأفكار الأخرى المعارضة فلم تعرب عن نفسها خشية مضايقة السلطات واكتفى أصحابها بعرض أفكارهم في الجلسات الخاصة.

وعلى هذا انتشرت مقالات العروبة وسادت ؛ ففي١٩٥٦ كتب محمد مصطفى عطا كتابه "نحو وعي جديد" يستعرض فيه التاريخ العربي المعاصر ، وكيف أن الغرب الأوربي تلاعب بمصير العرب ، وعمل على تفتيت قواهم. ثم يدعو الكاتب في نهاية كتابه إلى "قيام إتحاد عربي مكين يواجه الأحلاف المطروحة على الساحة العربيَّة" ، ويكتب علي رفاعي محمدي – مفتِّش الوعظ العام بالأزهر – كتابه "وحي النهضة الوطنيَّة في الخطب المنبريَّة" ويقول إن ثورة مصر أيقظت وعي

العرب ، لأن مصر دائماً كانت محط آمال العرب ، وإن المستعمر استطاع أن يفرِّق بين من جمعهم الدين والجوار واللغة والمصالح المشتركة ، ولكن ولأن الله يأبى إذلال أمَّة الإسلام فقد قيَّض فتية من شباب مصر آمنوا بها وقاموا بالثورة .

وفي ١٩٥٧ يكتب مصطفى عبد اللطيف السحرتي كتابه "إيديولوجية عربيَّة جديدة" ليقول بأن مصر ولدت بعد الثورة بوعي جديد فنالت بجهادها الحاضر استقلالها وعمَّت أرجاءها روح القوميَّة العربيَّة ، وإن الإيديولوجيَّة العربيَّة تتواءم مع التطور التاريخي لمصر وخصائص مصر الوجدانيَّة والروحيَّة والثقافيَّة. وفي رأيه إن تلك الإيديولوجيَّة تمتاز على خمس إيديولوجيات أخرى تحوم حول مصر مختلفة فيما بينها ومتضاربة ومتصارعة وهي : إيديولوجيَّة طائفيَّة رجعيَّة متزمِّتة، وإيديولوجيَّة غربيَّة ماديَّة قناصة ، وإيديولوجيَّة اشتراكيَّة ديكتاتوريَّة متطرِّفة ، وإيديولوجيَّة أمريكيَّة محاربة.

وتتوالى الكتابات التي تؤكِّد عروبة مصر وأهميَّة التوحُّد العربي وخاصة بعد إعلان وحدة مصر وسوريا في ١٩٥٨ فيكتب إسماعيل القباني عن الوحدة الثقافيَّة العربيَّة (١٩٥٨) ، ويكتب حسين نصار "مصر العربيَّة" (١٩٦٠).

وفي العام نفسه يكتب صلاح عبد الصبور "أفكار قوميَّة" ، ويكتب علي حسني الخربوطلي "المجتمع العربي". ويكتب لمعي المطيعي "المجتمع العربي " ويكتب إميل شوقي "في مجتمع عربي جديد" ؛ ويكتب منير الشريف "حب العرب لقوميتهم" ؛ وتنشر دراسة للأدب في

ظـلال القوميَّـة العربيَّة بإشـراف محمـد قدري لطفـي. وهكـذا أصـبحت الكتابـة عن العروبـة هاجس المثقفين سواء كتبوا عن إيمـان بهـا أو من باب الزلفى للوسط الحاكم .(١)

أسباب فشل القوميَّة العربيَّة

ويرجع سبب فشل القوميَّة العربيَّة إلى عدة أسباب أهمها :

١- عـدم مراعـاة الفـروق العرقيَّـة بـين الـدول العربيَّـة ، فهنـاك – كمـا سنبين بالتفصيل فـي فصـل لاحـق – فـرق كبيـر بـين العـرب المُسْتَعْرِبَة (عـرب الجزيـرة العربيـة – دول الخلـيج – واليمن) ، والعـرب المُسْتَعْجَمَة (الهلال الخصيب – العراق والشام – شمال أفريقيا) وهـم وإن كـانوا عربـاً لساناً فهم من أعراق مختلفة وسمات متباينة .

٢- عـدم مراعـاة البعـد الـديني فـي الوحـدة ، والـدين – كمـا سـنرى – العنصر الوحيد الذي جمـع هـذه الشعوب المختلفـة ولكن القوميَّـة العربيَّـة نبذت الدين كعامل رئيس للوحدة ، وحاولوا إجبـار الأنظمـة العربيَّة علـى الخضوع لحـاكم واحـد والتسليم لـه ، وفـرض نظامـه العلمـاني علـى سـائر الأمـم .. ذلـك النظـام الـذي استبدل النظـام الاشتراكي الثـوري المسـتعار من الشيوعية العالميَّة التـي لا تؤمن بـأي ديـن ، بأصـول الإسـلام الراسـخ في نفوس كل المسلمين المؤمنـة بالله رب العـالمين – ليت هؤلاء القومين فقهوا ما دعـا إليـه الأفغـاني وعملـوا علـى تحقيـق الجامعـة الإسـلاميَّة التـي

(١) د. عاصم الدسوقي " جدل الهوية والمواطنة في مصر في النصف الثاني من القرن العشرين " موقع المجلة المصرية نون للترجمة والنشر ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٨

تجمَّع المسلمون حول أهدافها السامية وغايتها النبيلة ، ولا تفرقهم باتباع سياسات مناهضة له .

٣- عدم الدعوة إلى وحدة أكفاء يراعى فيها التمايزات الوطنيَّة، والقطريَّة ، والقوميَّة ، وإنما دعت أحزاب البعث والناصريَّة إلى وحدة أتباع .

ولأهمية هذا الموضوع نذكر خلاصة القوميَّة العربيَّة التي حاول فرضها الرئيس المصري جمال عبد الناصر ، وأسباب فشلها بعد مقدمة يسيرة عن قوة مصر الناعمة .

مصر والقوة الناعمة

إن التأثير المصري في الأمة العربيَّة قديم قدم الفتح العربي لمصر، ولم يقتصر هذا التأثير على مجال واحد إنما كان في شتى ألوان العلوم والمعارف والفنون هو ما يسمى بالقوة الناعمة التي يقول عنها حسنين هيكل : " إن القاهرة أخذت تتحول، دون أن ندرى وكما تنشأ كل الأمور الطبيعيَّة دون أن يخطِّط لها أحد، إلى عاصمة ذات دور خاص.

قدم إليها المفكِّرون الهاربون من الخلافة، والهاربون من السلطان العثماني الذي تشتدُّ قبضته أكثر على المواقع الإسلاميَّة بعد ضياع المسيحيَّة .

في هذه الفترة بدأت القاهرة تقوم بدور: ليس البديل وإنما الموازي، في الناحية الثقافيَّة والفنيَّة والعلميَّة، وحتى نواحي الفكر والحريَّة السياسيَّة .

بدأ هناك شيء في القاهرة يعطيها وضعاً آخر.

هي ليست القوة الغازية أو الحاكمة، ولكنها قوَّة بشكل ما قد كونِت ما يمكن أن يكون ملاذاً لأفكار وتيارات، وهذا أعطاها قوة إلى جانب الإعلام.. فإن هذا أيضاً ما حدث في المسرح، والموسيقي، وحركة الترجمة والتأليف.. إلى آخره، وبالتالي هرعت المنطقة كلها تقريباً بآمالها وطموحاتها إلى عاصمة اسمها القاهرة لأن الظروف السياسية فيها كانت تتيح ذلك ، توفِّر نوعاً من الاستقلاليَّة عن الخلافة، لأن الظروف في حالة مصر كانت تعطي: صلة بالجامع المشترك ، واستقلالاً عنه في نفس الوقت، وهكذا نشأ مركز في القاهرة في اعتقادي: أننا يجب أن نفهمه لكي نستطيع أن نحافظ عليه ؛ لأني أخشى أن هذا الموقع الآن معرض لهجمات شنيعة.

الحقُّ أننا عندما تحدثنا في مصر حتى قبل ثورة يوليو عن أفكار الاستقلال الوطني والمجالس النيابيَّة، تكلَّمنا عن حرية.. تكلَّمنا عن دستور، فإن كلَّ هذه الأفكار قد وجدت صداها في العالم العربي، ليس لأننا كنا راغبين في تصديرها.. ولكن لأن القاهرة تحوَّلت بفعل ظرف تاريخي تسانده حقائق جغرافيَّة إلى قوة، لكن أية قوة ؟

أظن أن أفضل من وصف هذا النوع من القوة هو جوزيف ماي، وهو أستاذ أمريكي بجامعة هاربر، في كتابه المهم جداً عن القوى الناعمة. كنا نتحدَّث عن مناطق تمارس نفوذاً أكثر من قوتها العسكريَّة والاقتصاديَّة، لكن بشكل أو آخر لها نفوذ يتعدى الحسابات الماديَّة، والقاهرة كانت واحدة منها. كان ماكميلان يحدثنى عن تأثير القاهرة وغيره آخرون.. فالقاهرة لها وضع خاص لم يتميَّز به غيرها بهذا

الشكل، حتى قاهرة الملك فاروق وقاهرة الملك فؤاد. الموسيقى والسينما والصحافة في مصر قامت بدور أكثر ألف مرة مما يمكن أن تفعله الدبابات والأساطيل والمدافع في خدمة إمبراطوريَّة. ولكن على شرط أن ندرك أن هذه القوة ليست مسيطرة ... هذا نفوذ مقبول ولكن غير مفروض، وبالتالي فإننا نرتكب خطأً عندما نتصور أن ذلك مفروض.. أو أنه لنا بالحق الطبيعي خطأ شنيع جداً. نعود لكلام البروفيسور ماى عن القوى الناعمة، فهو يقول إن التاريخ قد عرف نوعين من القوة:

القوة الصلبة: وهى القوة التي تفرضها الإمبراطوريات بقوة السلاح، وربما الاقتصاد.

القوة الناعمة: وهي القوة التي تستطيع أن تحدث تأثيرها دون وسائل العنف، فتتحقق بالنفوذ أكثر مما تتحقق بالغزو. " (١)

هكذا كان دور مصر وتأثيرها في الوطن العربي كله كانت قوة ناعمة فترى ما هو مصير هذه القوة الناعمة عندما تبني عبد الناصر الدعوة إلى القوميَّة العربيَّة .

عبد الناصر والقوميّة العربيّة

في البداية لا بد أن نقرر أن عبد الناصر قبل عام ١٩٥٣ لم يكن قد زار بعدُ أيَّ بلد عربي ، ولم يبد أي اهتمام بالشأن العربي ، فقد كان منكبَّاً على قضايا مصر الوطنيَّة . وأوَّل مرَّة تتسع دائرة اهتمامه لتشمل الوطن العربي كان في كتابه "فلسفة الثورة " (١٩٥٣) حيث يقول :

---

(1) محمد حسنين هيكل برنامج " مع هيكل " الجزيرة نت .

" لن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان . أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربيَّة تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، وامتزج تاريخنا بتاريخها، وارتبطت مصالحنا بمصالحها، حقيقة وفعلاً وليس مجرد كلام؟ " .

وفي موضع آخر من الكتاب يقول : " ما من شك أن الدائرة العربيَّة هي أهم هذه الدوائر [الدائرتان الأخريان يقصد بهما ، قارة أفريقيا ، والعالم الإسلامي] وأوثقها بنا فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك . وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضاً بالدين ، فنقلت مراكز الإشعاع الديني ، في حدود عواصمها من مكة إلى الكوفة ثم القاهرة . "

وفي موضع ثالث يقول: "ولقد بدأت بعد أن استقرَّت كل هذه الحقائق في نفسي أومن بكفاح واحد مشترك وأقول لنفسي: ما دامت المنطقة واحدة، وأحوالها واحدة، ومشاكلها واحدة، ومستقبلها واحد .. والعدو واحد مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة – فلماذا تتشتت جهودنا ؟ فقد بدأت خبايا الصورة تتكشف، والظلام الذي كان يحيط بتفاصيلها ينقشع، وأعترف أني كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التي تسد الطريق إلى الكفاح الواحد، ولكني بدأت أومن بأن هذه العقبات نفسها ينبغي أن تزول لأنها من صنع ذلك العدو الواحد." (١)

---

(1) جمال عبد الناصر " فلسفة الثورة " مطابع مجلس الخدمات ، الصفحات على التوالي هي : ٩١ ، ٩٤ ، ١١٠ ، ١١١.

وواضح من كلام عبد الناصر أن موضوع الوحدة العربيَّة لم يكن في دائرة اهتمامه قبل ذلك ولكنه بعد قيام الثورة واستقرار الأمور في مصر بدأ يفكر في هذا الموضوع.

لم تكن نظرة عبد الناصر للدول العربيَّة على اعتبار أنها دول ذات سيادة وأعضاء متساوون في جامعة الدول العربيَّة إنما كان يطمح في قيادة الأمة العربيَّة وتوجيه مسارها فقد كان يرى نفسه جديراً بهذه المنزلة.

ولكن كيف يتمكَّن عبد الناصر من الوصول إلى التحكم في سياسة الدول العربيَّة، وإخضاع الحكام العرب لنفوذه ، نعم لمصر رصيد كبير من التأثير الثقافي والعلمي والحضاري في سائر الدول العربيَّة بفضل القوة الناعمة التي تمثلت في الموسيقى والغناء والسينما والمسرح والصحافة والكتاب وقرَّاء القرآن الكريم . تلك الفنون والمعارف والعلوم التي غزت مصر بها الوطن العربي وأثرت في شعوبه على كافة المستويات والاتجاهات . لكن كل هذا لا يجعل حكام الدول العربيَّة يخضعون لقرار حاكم مصر ولا يجعل شعوبهم تضغط عليهم لينضووا تحت جناحه.

هدف عبد الناصر من القومية العربية

لابد إذن من باعث آخر يحرك الشعوب العربيَّة لتضغط على حكامها لتسير في ركاب حاكم مصر . أخذ عبد الناصر يبحث عن ذلك الباعث الذي يوحِّد به العرب فلم يجد إلا فكرة القوميَّة فقد تبنَّت هذه الفكرة كثير من الدول الغربيَّة لتتوحَّد ضد أعدائها .

لقد كان عبد ناصر بحاجة إلى ما عبر عنه "جورجس سوريل " وحدَّده باسم الأسطورة وهي عبارة عن مجموعة تصورات وانطباعات تملك القدرة على إثارة كل العواطف والمشاعر بطريقة غريزية .

لقد وجد عبد الناصر إذن ضالته في فكرة " القومية العربيَّة " تلك الفكرة التي تصادف هوى في نفوس كلِّ العرب لأنها تعيد لأذهانهم فكرة الخلافة الإسلاميَّة والمد العربي الذي قهر الأكاسرة والقياصرة وورث ممالكهم في الشرق والغرب .

يقولا كوبلاند : " إن أسطورة عبد الناصر (قوميته العربيَّة) هي مجموعة تصوُّرات وانطباعات تحيط بمعركة الرجل الملون (العرب والمسلمين والإفريقيين، وهي دوائر عبد الناصر الثلاث) ضد الأوربيين (السوفييت والغربيين) ؛ معركة يثق فيها الرجل الملون كل الثقة من إنه سيفوز في النهاية . كما استخدم عبد الناصر لرصيده في أجهزة البناء والإصلاح (مثل الدعاية ، الحزب السياسي الواحد ، الآلاف المؤلفة من الموظفين) يهدف إلى تخليد تلك " الأسطورة " إن نظرتنا حول ناصر وأسطورته ستكون ذات خدمة جليلة خلال استعراضنا لمحاولات ناصر للربح ولاكتساب التأييد الشعبي وكيف أنها قد أثَّرت كثيراً على مرونة حركته ومناوراته في " لعبة الأمم " [١]

لقد أدرك عبد الناصر أنه لكي يكون لاعباً أسياسيّاً في المنطقة فلا بد أن يخضع أكبر عدد من الدول لنفوذه حتى يتمكَّن من حصد أكبر قدر ممكن من المساعدات الأجنبية .

([1]) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير مرجع سابق ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

يقول كوبلانـد : " اعتقد ناصـر أنـه فـي ذلـك الوقـت الـذي تـصاعد ضغط "اتحاد المحايدين" علـى مصادر المساعدات الأجنبيـة الرئيسية – وهوي الولايات المتحدة والاتحـاد السوفييتي – بـصورة حسابيَّة بسيطة ، فقد تـضاعف ضـغطه عليها بـصورة هندسية مركبـة وعلـى سبيل المثـال فعنـدما كـان ناصـر يـضمن تأييـد المـصريين وحـدهم لـه كانـت قيمـة المـساعدات التـي يتقاضـاها منَّـا لا تتجـاوز جـدلاً " س " وعنـدما يـضمن تأييد العـالم العربـي لـه فالنتيجـة أحـسن والقيمـة تتـضاعف وتـغـدو "$س^2$ " وفي حال وقوف العـالم الإسلامي معه فإنه يحصل علـى مساعدات تبلـغ "$س^3$ " وعنـد مؤازرة الـدول غيـر الغربيـة لـه (الإفريقيـة والآسيوية) فإنـه يحصل على مساعدات قيمتها " $س^4$ " .

ولـم نكـن نـشترط عليـه أن يكـون النـاطق باسـم جميـع الـدول الإفريقيـة والآسيوية أو جميع دول العـالم الإسـلامي ، بل كـان يكفيـه أن يبـرهن لنـا علـى أنـه يملـك زمـام التـأثير عليهـا حتـى يتقاضـى كامـل أجـره ومطلـق تعويضاته .

ولم نكن لنتفرد في سلوك مثل هذا الطريق وحدنا بغيـة تنفيذ مآربنـا ، بـل كـان الـسوفييت يـشاركوننا فـي هـذا أيـضاً . فكنـا وإيـاهم نفـضل الاسـتعانة بناصـر لتنفيذ سياستنا وتحقيـق أغراضـنا بـدل الاسـتعانة بغيـره من زعمـاء : اتحـاد المحـايدين " مثل نكرومـا أو سوكارنو أو بـدل مباشرة ذلك بأنفسنا . " (١)

([1]) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير مرجع سابق ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

لم يكن عبد الناصر يطمح في أن يصير حاكماً لكل العرب فهذا فوق طاقته وأكبر من إمكانياته إنما كان أقصى طموحه هو أن يكون في استطاعته توجيه سياسة الدول العربيَّة ، وأن يكون المتحدِّث الرسمي باسمها مع القوى الخارجية دون أن يتحمل مغبَّة أن يكون مسئولاً عن إدارة شئونها الداخلية. [١]

لم تلق دعوة عبد الناصر لوحدة الصف العربي استجابة من الحكام العرب وإن كانت وجدت استجابة من بعض القطاعات في الشعوب العربيَّة .

فلم تنجح الاتصالات المصريَّة التي جرت مع الزعماء العرب ، سواء التي جرت عن طريق السفراء العرب في القاهرة أو عن طريق السفراء المصريين في العواصم العربيَّة ، أو تلك التي تمَّت عن طريق زيارات عديدة قامت بها وفود من شتى المستويات . في إقناعهم فكرة القوميَّة العربيَّة و"الحياد الإيجابي" .

ويعترف عبد الناصر بفشل دعوته إلى وحدة الصف فيقول: " نحاول بكل وسيلة من الوسائل من أجل وحدة الصف العربي أن نعيد الوفاق .. ونحاول أن نجمع الصف من أجل وحدة الصف العربي، ولم يكن هناك سميع ولا مجيب .. وقد بعثت إلى قاسم العراق أربع مرات حتى نجتمع من أجل وحدة الصف العربي ومن أجل مصلحة العالم العربي . " [٢]

([1]) ولقد فشلت المحاولتان اللتان اضطر عبد الناصر فيهما أن يكون مسئولاً إدارياً عن بلد آخر غير مصر كما حدث في الوحدة مع سوريا ، وحرب اليمن .

([2]) من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر من دمشق بعد جنازة شهداء ثورة العراق ١٩٥٩/٣/١٣.

ولم ييأس عبد الناصر من الدعوة إلى وحدة الصف العربي فراح في معظم خطبه يردد " تعالوا نعمل على وحدة الصف العربي " (١)

" أن سبيلنا لحماية الحريَّة وتثبيت الاستقلال هو التضامن ووحدة الصف العربي " (٢)

ويعترف عبد الناصر أن سبب إحجام الحكام العرب عن تلبية دعوته بل معاداتها هو رغبته في بسط نفوذه عليهم لا رغبته في وحدة أكفاء لا يعلو بعضهم على بعض ولا يتخذ بعضهم بعضاً سخريّاً .

يقول عبد الناصر : " بدأ الكلام كتير جداً على محاولة إخماد الفكرة في الدعايات المعادية لها، وتركيز الهجوم على الأشخاص، يقال مثلاً إن القوميَّة العربية معناها إمبراطورية يريد أن يحكم فيها جمال عبد الناصر ويتسلط بها على الدول العربية . " (٣)

لقد عملت الدعاية الناصريَّة على أن تجعل منه أنه أوَّل عربي منذ قرون عديدة ينجح في شق عصا طاعة الأوربيين ويرفض الخضوع لهم، بل إنه أوَّل عربي بعد صلاح الدين يوقع بهم الهزائم الحاسمة ، وهكذا راحت البرامج الدعائيَّة تذاع على الشعب مبرزة هذا الوجه لشخصيَّة عبد ناصر ومؤكدة حقيقته ، وكان المذيعون يرتلون بعض

([1]) من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الشعبي الذي أقامه الاتحاد القومي للاحتفال بمرور سبع سنوات على الثورة ١٩٥٩/٧/٢٢.

([2])كلمة الرئيس جمال عبد الناصر من ساحة الجلاء بحضور بطريرك الأرمن الأرثوذكس ووفد من رجال الدين الأرمن من لبنان ١٩٥٩/٣/٨.

([3]) خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في اجتماع قيادة ضباط حامية اللاذقية ١٩٦٠/٢/١٤ .

المقتطفات الشاعرية من خطب عبد ناصر التي تفيض بأخبار الشعوب الآسيويَّة والإفريقيَّة والعربيَّة التي تعاني من اضطهاد الأوربيين واستغلالهم، إلا أنها كانت تختتم بترنيمة شاعرية تقول : " ولكن عبد الناصر سوف ينقذنا من كل هذا " ومع أن هذه البرامج كانت غاية في الابتذال والركاكة إلا أنها كانت ذات تأثير غير قليل في نفوس السامعين من الطبقات ذات الثقافة الضحلة والإدراك السطحي . ولم تبق هناك طريقة يمكن استخدامها في إطار إظهار شخصيَّة ناصر إلا واستخدمت . فقد وزِّعت صوره في كل مكان وحتى في الكويت التي لم تكن في يوم من الأيام ضمن دائرة نفوذه وكان نادراً ما تجد حانوتاً يخلو من صورته معلقة في أبرز مكان فيه . (١)

ولم تستطع آلة الدعاية الناصريَّة الجبَّارة أن تجعل " القوميَّة العربيَّة " التي يدعو عبد الناصر إليها حقيقة واقعة وماذا ينتظر من حكام يدعوهم رجل للدخول في جمهوريته العربيَّة وأن يتنازلوا له طواعية عن ملكهم .

لو كان قد دعاهم إلى سوق عربيَّة مشتركة، أو اتحاد كونفدرالي أو وحدة أكفاء أو تفعيل ميثاق جامعة الدول العربية (٢) لوجد استجابة أكيدة

(1) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير مرجع سابق ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(2) نصت المادة الثانية في ميثاق الجامعة العربية على الآتي : " الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها،وتنسيق خططها السياسية، تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها،والنظر بصفة عامة في شئون البلاد العربية ومصالحها ، كذلك من أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها في الشئون الآتية :

أ. الشئون الاقتصادية والمالية،ويدخل في ذلك التبادل التجاري،والجمارك،والعملة،وأمور الزراعة والصناعة .

من الدول العربيَّة ومن حكامها ما دام يبغي الوحدة العربيَّة لا الزعامة والدعاية الشخصيَّة.

استبدال وحدة الهدف بوحدة الصف

لم تنجح دعوة عبد الناصر في تجميع الدول العربيَّة في جمهورية واحدة متحدة إلا مع دولة واحدة وهي سوريا ولم يستمر هذه الاتحاد طويلاً ثلاث سنوات فقط (١٩٥٨ – ١٩٦١) كلها مليئة بالصراعات والخلافات والمؤامرات وبرغم المبالغ الضخمة التي أنفقها عبد الناصر لإنجاح هذا الاتحاد إلا أنه فشل وتم انفصال سوريا عن مصر بطريقة مهينة لمصر ولزعيمها ، ولعبد الحكيم عامر حاكم إقليمها الشمالي وإزاء هذا الفشل في الوحدة الأولى والأخيرة استبدل عبد الناصر بوحدة الصف العربي وحدة الهدف فبدلاً من الدعوة إلى توحُّد العرب رغم اختلاف طبيعة نظمهم وأساليب حكمهم دعا عبد الناصر إلى وجوب أن يسلك العرب طريقاً واحداً لا ثاني له لكي يتوحَّدوا وهو الطريق الاشتراكي التقدمي الذي اتخذته مصر منهجاً ودستوراً ابتداء من ١٩٦١، وفي سبيل ذلك لم يشن عبد الناصر الحرب على فكرة وحدة

ب. شئون المواصلات،ويدخل في ذلك السكك الحديدية،والطرق والطيران،والملاحة، والبرق، والبريد .
ج. شئون الثقافة .
د. شئون الجنسية، والجوازات، والتأشيرات، وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين .
هـ. الشئون الاجتماعية .
و. الشئون الصحية ، وعلاوة على ذلك، الدول التي وقعت على اتفاقِ الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي في ١٣ أبريل ١٩٥٠ ملزمةٌ على تنسيق تدابير الدفاع العسكري .

الصف التي ظلَّ لأكثر من ثماني سنوات ينادي بها فحسب بل شن حروباً حقيقية – وليست فقط كلاميَّة – ضد الدول التي أسماها رجعيَّة لأنها رفضت الطريق الاشتراكي التقدمي .

يقول مالكولم كير : "هذا التحوُّل وجد في نفسيَّة عبد الناصر تجاوباً وتغييراً في الشعارات حيث كان من المألوف سابقاً التحدث عن وحدة الصف العربي بين أنظمة الحكم العربيَّة ذات السياسات الداخليَّة المختلفة ليحسن مواجهة الأخطار والضغوط الخارجيَّة، فإن وحدة الصف العربي الآن أفسحت المجال لفكرة وحدة الهدف، وقد وُجِّه للشعار الجديد اتهامات من دمشق وعمان والرياض بأن ناصر كان يحطم التضامن العربي".[١]

يقول عبد الناصر : " السنة اللى فاتت لما اتكلمت معاكم فى عيد الوحدة بعد الانفصال بستة أشهر اتكلمت عن وحدة الهدف وكان شعار جديد لنا، يعنى قلت حاجتين: إن وحدة الهدف هي الأساس مش وحدة الصف، لأن وحدة الصف بدون وحدة هدف لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تمكن وحدة أو أن تقيم وحدة، وقلت إن احنا لن نهادن الرجعية، وان احنا نصمم على وحدة الهدف وندعم وحدة الهدف. ولكن وحدة الصف دا كان شعار كانوا بيطلقوه السياسيين العرب دائماً من أجل خداع الشعوب العربية، كانوا يختلفوا ويطلعوا قدام الناس يتصوروا ويقولوا وحدة الصف. " [٢]

([1]) نقلاً عن مالكولم كير " عبد الناصر والحرب العربية الباردة " ترجمة د. عبد الرءوف أحمد الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٦٨ .

([2]) من خطاب جمال عبد الناصر في الاحتفال الشعبي بمناسبة العيد الخامس للوحدة ١٩٦٣/٠٢/٢١.

وفـي مقابـل دعـاة القوميَّـة العربيَّـة يوجـد دعـاة الوطنيَّـة المـصريَّة ، وسوف نعرض لدعاة هذا الاتجاه في الفصل التالي .

* * *

دعاة الوطنيَّة المصريَّة

نصر أكتوبر والوحدة العربية

وبعد فشل القوميَّة العربيَّة الناصريَّة التي مزَّقت العرب وأضاعت أراضيه تمكَّنت مصر / السادات من تحقيق النصر الأول على إسرائيل في أكتوبر ٧٣ بمشاركة سوريا في الحرب ومساعدة العرب بالمال والسلاح وبعض الجند ، وجد السادات إنه رغم كلِّ ما فعل لم يستطع أن يحرِّر أكثر من ١٠- ١٢ كم من أرض سيناء وبقي معظم الـ٦١ ألف كم من أرض سيناء محتلاً فضلاً عن فلسطين والجولان ، كما أدرك الدعم اللامحدود اللامشروط من الغرب لإسرائيل ولاسيما أمريكا فعمد إلى نهج سياسة جديدة لاسترداد الأرض العربيَّة المحتلَّة ، وهي سياسة مباحثات السلام التي تقضي بمبدأ " الأرض مقابل السلام " والمقصود بالأرض هنا الأرض العربيَّة المحتلَّة قبل ٥ يونيو ٦٧ .

أسباب الجفوة العربية بعد الحرب

ولكن العرب بحكم أنهم لم يعانوا ما عانى المصريون من آلة الحرب التي استنزفت المال وحصدت وشوهت أغلى البنين وهما زينة الحياة الدنيا ، مما اضطرَّ مصر إلى أن تمدَّ يدها للغريب الذي له أجندة خاصة يريد أن يطبقَّها حتى ولو تعارضت مع مصالح مصر العليا

كالاتحاد السوفيتي ، والقريب الذي لم يسلم عطاؤه من المنِّ والأذى ، واضطرَّ المصريون الذين تمسكَّوا بأرضهم ووطنهم طوال تاريخهم أن يهاجروا ، وفوق آلام الغربة كانت جراح سوء المعاملة وللأسف كانت غالباُ ممن حاربنا من أجل حريتهم ، وافتقرنا من أجل غناهم فقد ارتفع ثمن برميل البترول من ٥ دولارات قبل حرب أكتوبر إلى ثلاثين دولاراً بعدها .

ولكن العرب رفضوا مجرَّد فكرة المباحثات مع إسرائيل فضلاً عن السير فيها ، ولم يجد السادات بدّاً من السير في طريق مباحثات السلام وأعلن أن حرب أكتوبر هي آخر الحروب ، وأن بيد أمريكا ٩٩ % من أوراق اللعبة ، وأن العرب عليهم أن يديروا ظهرهم للاتحاد السوفييتي الذي يستخدمهم في حربه الباردة مع أمريكا والذي تناهض سياسته هو وحلفاؤه (الكتلة الشرقيَّة) سياسة أمريكا وحلفائها (الكتلة الغربيَّة) إلا في شيء واحد يتفق عليه الجميع وهو أمن إسرائيل .

وقد أكَّدت حرب أكتوبر ٧٣ للسادات ذلك فتوجَّه إلى أمريكا لاسترداد الأرض المحتلَّة وتحقيق السلام العادل الشامل الدائم مع إسرائيل ، وقد عدَّت البلاد العربيَّة هذا التوجه خيانة للقضيَّة العربيَّة التي لا تحلُّ إلا باللاءات الثلاثة : لا صلح ولا اعتراف ولا تفاوض مع العدو الصهيوني قبل أن يعود الحق لأصحابه .

وحدثت جفوة شديدة وفجوة كبيرة بين مصر والعرب بسبب هذا الموضوع وشنَّ القوميون والناصريون والبعثيون حروباً شعواء على سياسة السادات الجديدة تجاه الأمَّة العربيَّة دافعوا فيها عن سياسة عبد

الناصر الداعمة للقوميَّة العربيَّة ، ونـدَّدوا فيها بـنهج السادات نحو الوطنيَّة المصريَّة ، وفي مقابل هؤلاء دافع بعض الكتاب مثل : توفيق الحكيم ، وحسين فوزي ، ولويس عوض ، وغيرهم عن السياسة المصرية الجديدة وندَّدوا بالقوميَّة العربيَّة الناصريَّة .

توفيق الحكيم ولويس عوض وقضية الوطنيَّة المصريَّة

ونترك لويس عوض أحد الأقطاب الثلاثة الداعية إلى الوطنيَّة المصريَّة ، والرافضة لفكرة القوميَّة العربيَّة بالمفهوم الناصري يناقش زميله الآخرين : توفيق الحكيم ، وحسين فوزي في هذا الموضوع .

يقول لويس عوض في كتابه " دراسات في الحضارة " : " كلام توفيق الحكيم وحسين فوزي فهو بإيجاز ووضوح انسحاب مصر من المجموعة العربيَّة وتخلِّيها عن ارتباطاتها مع جاراتها لكي تلتفت لشئونها الخاصة بعد طول ضياع وإعادة بناء نفسها بعد طول خراب [١] وهذا في رأيي منطق مشروع رغم عدم موافقتي عليه ، وليس بحاجة إلى كلّ هذا اللف والدوران للتدليل عليه كقول الحكيم أن مصر الحقيقة هي " متحف العالم " الذي لا يصان إلا بالحياد أو " فندق العالم " محط سياح المشرقين والمغربين ، وهو ما يستوجب أن نعيش في حياد دائم ... وهو منطق مشروع للأسباب التي ساقها توفيق الحكيم في مقاله الثاني لا في مقاله الأولى ، وهي أنه ليس على مصر واجبات عربية ما لم تكن لها

(١) يقصد الحكيم بقوله " طول خراب " فترة القومية العربية وإضاعة عبد الناصر ثروات مصر وأرضها وأبناءها وأمنها من أجل الوحدة العربية ، وكان توفيق الحكيم أول من انتقد الحقبة الناصرية في كتابه " عودة الوعي " وكتاب " وثائق في سبيل عودة الوعي " .

حقوق عربية . وبما أن مصر بسبب أدائها لواجباتها قد " أضاعت حياتها ومالها وأفلست واشتغلت خادمة بالأجر في بيوت الدول العربيَّة الغنيَّة " نتيجة لاضطلاعها بالعبء الأكبر في الدفاع عن المنطقة .

وحدة عربية إندماجية أو سياسة مصرية مستقلة

وبما أن الدول العربيَّة ترفض أو تعجز عن الدخول في الوحدة الاندماجيَّة مع مصر في الاقتصاد والدفاع الوطني والسياسة الخارجيَّة ، وهو الشرط المستحيل التحقيق الذي اشترطه توفيق الحكيم لعروبة مصر واضطلاعها بالمسئوليَّة عن المنطقة العربيَّة .

فمن حق مصر إذن أن تلتفت لشئون نفسها ولو أدى الأمر أن تدير ظهرها للعالم العربي في سبيل إنقاذ نفسها ، وما ينطبق على المنطقة العربيَّة ينطبق أيضاً على المنطقة الأفريقيَّة .

فليكن . ولكن توفيق الحكيم ، ومن ذهب مذهبه ، يتجاوزون عن حقيقة من أهم حقائق الحياة والتاريخ إلا وهي الحقيقة الجيوبوليتيَّة (الجغرافيَّة السياسيَّة) التي تربط مصر راضية أو كارهة بالمنطقة العربيَّة وبالمنطقة الإفريقية وهي حقيقة الأمن القومي المصري البحت بلا فلسفة ولا ميتافيزيقا ولا مجردات طنانة كتلك التي يطلقها البعثيون ومن ذهب مذهبهم فيطمسون حقائق الحياة والتاريخ بالشعارات المُسْكِرة .

وأنا لست بحاجة إلى أن أسمي نفسي عربيّاً أو أفريقيّاً لكي أدرك أن أمن مصر نفسها متوقف على أمن المنطقة العربيَّة ولاسيما في شرق البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وعلى أمن المنطقة الأفريقيَّة ولاسيما في منابع وادي النيل وفي مدخل البحر الأحمر .

ولهذا ، لكي نكون أمناء مع أنفسنا ومع الغير يجب أن نَفْصِل بين قضية مصر عن قضية الكفاح المشترك في العالم العربي وفي أفريقيا وفي أفريقيا السوداء للحفاظ على أمن المنطقتين الذي يتوقَّف عليه أمن مصر في داخلهما.

وقد كنا قبل ١٩٥٢م نسمي تضامن شعوب المنطقة للتخلص من الاستعمار ، حتى قبل طرح دعوة القوميَّة العربيَّة ، " الكفاح المشترك " كنا نتعاضد مع السودان ليتخلُّص من الاستعمار البريطاني سواء قَبِلَ السودان مبدأ وحدة وادي النيل أو رفضه . وكان دمعنا لا يكفكف يا دمشق كلما للحرية الحمراء باباً بكل يد مضرجة يدقُّ . كلُّ ذلك دون أن نفكِّر في زيجة فيدراليَّة أو كونفدراليَّة أو في قوميَّة ميتافيزيقيَّة اسمها القوميَّة العربيَّة .

وأنا أوافق توفيق الحكيم على قوله : " إذن عندما نقول أن العرب أمَّة واحدة ، لها قضيَّة واحدة ، فهو قول لا أساس له في الواقع لأن الواقع هو أن لكلِّ دولة عربيَّة قضيتها التي تهمها في المكان الأول . فليس بينها اتحاد مشترك في جيش واحد أو اقتصاد واحد ، بل فيها دول تتَّمتع بالغنى المُفْرِط ، وأخرى تقاسي من الفقر المُدْقَع ، وبعضها أرضه محتلَّة وتهمُّه مؤتمرات السلام ، والبعض أرضه حرَّة ، وتهمُّه مؤتمرات الأوبك [(١)].. الخ

(١) وبعض الدول العربية اليوم مع الربيع العربي ، وبعضها الأخر ليس فقط ضده بل تدعم الثورة المضادة لإجهاضه بكل قوة .

ومع ذلك فأنا أعجز عن الربط بين هذه الحقائق وبين دعوة الحياد المصري فالحياد كما هو مفهوم للخاص والعام هو انتهاج سياسة تنأى بأيٍّ بلد من البلاد عن الارتباط بأحلاف عسكريَّة مع أيَّة كتلة من الكتل المتصارعة في العالم ولا سيما الكتلتان العظميان ، وهذا ما درجنا على تسميته " عدم الانحياز " ولكن اسمه التقليدي المتعارف عليه من قديم الزمن كان " الحياد " .

فهل توفيق الحكيم وحسين فوزي يتحدَّثان حقاً عن حياد مصر والشرق والغرب ؟

أنا لم أفهم ذلك بوضوح من منطوق كلامهما ، وإنما الذي فهمته والذي فهمه معي أكثر القراء هو حياد مصر بين العرب واستقلال سياستها عن سياستهم فلو جنحوا شرقاً كان لنا أن نجنح غرباً . وهذا هو المنطق المغلف في دعوة الحياد المصري . فهل يمكن بأي معنى من المعاني أن نسمي هذا حياداً مصريّاً ؟ أم أنه نوع آخر من الانحياز في مواجهة الانحياز العربي الآخر ؟

ومع التسليم بأن ما بين الدول العربيَّة من اختلافات أصيلة يجعل من اتحادها مع مصر في جيش واحد واقتصاد واحد مجرد "حلم جميل" بعيد التحقيق إن لم يكن مستحيل التحقيق ، فمتى كان هذا يمنع أن الأمن العربي جزء هام من الأمن المصري ، وأن الأمن المصري جزء هام من الأمن العربي؟ وإذا كنا دعاة حياد بين الشرق والغرب ، أو بين الكتلتين النوويتين ، فلماذا يكون الحياد المطلوب حياداً مصريّاً خاصاً ولا يكون حياداً عربيّاً عامّاً ؟

ولكن الحياد الدولي ليس الحياد الذي يتحدَّث عنه توفيق الحكيم حين يقول : " لا بدَّ إذن من حياد مصر وعدم تدخلها في قضية شقيق من أشقائها العرب إلا بالتوكيل الرسمي " فهو إنَّما يتحدَّث عن حياد مصر بين العرب ولا يتحدَّث عن حياد مصر بين الدول العظمى .

وهذا أيضاً منطق مشروع ولكن له اسماً آخر غير " الحياد " فاسمه الحقيقي هو اتباع " سياسة مصريَّة خاصة " تحمي الأمن المصري نتيجة :

١- لعجز العالم العربي عن اتباع سياسة عربيَّة عامَّة تحمي الأمن العربي .

٢- لفشل مصر في أن تأخذ من العرب بمقدار ما أعطت وما تعطي أثناء قيامها بالتزاماتها نحو الأمن العربي والتنمية العربيَّة .

٣- لضرورة تصحيح الأخطاء المصريَّة والعربيَّة في الماضي والحاضر .

٤- وهو أهم ما في الموضوع . لأن محصِّلة الأسباب الثلاثة السالفة قد تركت مصر مجهدة مستنزفة وعطَّلت تقدمها بل ساعدت على تأخرها بما يتهدد مستقبلها فهي في حاجة إلى مراجعة حساباتها وأسس العقد الاجتماعي فيها التي أدَّت إلى ما هي فيه من غموض في الأهداف وبلبلة في الوسائل وانقسام في الشخصيَّة وفي الإدارة ...

وبموجب هذه الواقعيَّة السياسيَّة تدرك مصر أن أمن العالم العربي جزء من أمنها الذاتي ، فهي لا تتخلَّى عنه من أجل أمنها هي . ولكن

بعد أن ثبت لمصر أن الطريق الذي كانت تسير فيه مصر والدول العربيَّة ، دائماً إلى منتصفه ، وليس إلى نهاية الشوط ، لم يزد مصر أو جاراتها أمناً عبر ثلاثين سنة ، بل زادها تعرُّضاً للعدوان وأضعف مناعتها لصدِّ العدوان رغم ما تبذل مصر من دماء وما تنفق من أموال وما تقدِّم من تضحيات ، أليس من حق مصر أن تعيد النظر في استراتيجيتها باحثة عن طريق آخر غير هذا الطريق الدائري الذي ينتهي بنا دائماً حيث بدأنا ولا يحلُّ لمصر أو لجاراتها مشكلات ؟

فهل نحن بحاجة بعد كلِّ هذا إلى دليل على أن المنطقة العربيَّة ، من الفارسي إلى الأطلسي كما يقولون ، منطقة جيوبوليتية واحدة ، أمنها واحد ومصيرها واحد إزاء الغزو الخارجي وإزاء النفوذ الخارجي سواء جاء من وسط آسيا أو من شطآن أوروبا أو من قادة الأطلنطيد أو من مروج الأقوام السلافية ؟ وهل نحن بحاجة بعد كل هذا إلى دليل على أن عزلة مصر عن غلافها العربي وعزلة العرب عن وقائهم المصري أسطورة سياسيَّة ولدَّها الإحساس بالقهر والإحباط وطلب النجاة بأي ثمن ولو كان الاعتصام في برج الأوهام السويسريَّة الذي عاش فيه لبنان مزمناً ثم أفاق وهو يقطر دماً على أن أمنه بل وكيانه جزء لا يتجزأ من أمن المنطقة وكيانها ؟ (١)

كانت هذا مخلص رأي توفيق الحكيم ، وحسين فوزي ، ولويس عوض في قضية الوطنيَّة المصريَّة في مقابل القوميَّة العربيَّة .

---

(١) د. لويس عوض " دراسات في الحضارة " دار المستقبل العربي ص ٨ – ١١ بتصرف يسير .

الوحدة العربية المشكلة والحل

وبما أن الدول العربيَّة ترفض أو تعجز عن الدخول في الوحدة الاندماجيَّة مع مصر في الاقتصاد والدفاع الوطني والسياسة الخارجيَّة ، وهو الشرط المستحيل التحقيق الذي اشترطه توفيق الحكيم لعروبة مصر واضطلاعها بالمسئوليَّة عن المنطقة العربيَّة فليس الحل هو الانكفاء على الذات والوطنية المغلقة على نفسها إنما الحل في تفعيل نص ميثاق جامعة الدول العربية الذي يتصف بالشمولية والتنوع الواسع في تحديد مجالات العمل العربي المشترك، وإنشاء محكمة عدل عربية، وسوق عربية مشتركة ، وتفعيل معاهدة الدفاع العربي المشترك وميثاق العمل الاقتصادي القومي .

الاتحاد الأوربي

وإذا لما يشأ العرب تفعيل ميثاق الجامعة العربية إنه بإمكانهم إنشاء اتحاد عربي على غرار الاتحاد الأوربي فقد تكررت المحاولات في تاريخ القارة الأوروبية لتوحيد أمم أوروبا، فمنذ انهيار الإمبراطورية الرومانية التي كانت تمتد حول البحر الأبيض المتوسط، مروراً بإمبراطورية شارلمان الفرنكية ثم الإمبراطورية الرومانية المقدسة اللتين وحدتا مساحات شاسعة تحت إدارة فضفاضة لمئات السنين، قبل ظهور الدولة القومية الحديثة.

وفيما بعد حدثت محاولات لتوحيد أوروبا لكنها لم تتعد الطابع الشكلي والمرحلي، منها محاولة نابليون في القرن التاسع عشر، والأخرى في

أربعينات القرن العشرين على يد هتلر، وهما تجربتان لم تتمكنا من الاستمرار إلا لفترات قصيرة وانتقالية بسبب وجود مجموعة من اللغات والثقافات الأوروبية المتباينة ، اشتملت هذه السيطرات على الإخضاع العسكري للأمم الرافضة، مما أدى إلى غياب الاستقرار وبالتالي كان مصيرها الفشل في النهاية . تماماً كما حدث للقومية العربية التي حاول عبد الناصر أن يفرضها على الدول العربية الرافضة .

وبعد كوارث الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، ازدادت بشدّة ضرورات تأسيس ما عرف فيما بعد باسم الاتحاد الأوروبي. مدفوعاً بالرغبة في إعادة بناء أوروبا ومن أجل القضاء على احتمال وقوع حرب شاملة أخرى. أدى هذا الشعور في النهاية إلى تشكيل "السوق الأوربية المشتركة" التي تأسست في اتفاقية روما للعام ١٩٥٧ وطبقت في ١ يناير ١٩٥٩ التي شكَّلت العماد الأول للاتحاد الأوروبي؛ فقد تطور الاتحاد الأوروبي من سوق مشتركة إلى شراكة اقتصادية وسياسية.

ويعتبر الاتحاد الأوروبي منظمة إقليمية رسمية أو تكتل جغرافي وسياسي واقتصادي قاري لـ ٢٨ دولة متقاربة جغرافياً ، ومتباينة اقتصادياً وثقافياً ولغوياً وتاريخياً .

ومن أهم مبادئ الاتحاد الأوروبي نقل صلاحيات الدول القومية إلى المؤسسات الدولية الأوروبية ، وللاتحاد الأوربي نشاطات عديدة، أهمها كونه سوق موحد ذو عملة واحدة هي اليورو الذي تبنت استخدامه ١٩ دولة من أصل الـ ٢٨ الأعضاء، كما له سياسة زراعية مشتركة وسياسة صيد بحري موحدة.

إن هذا العصر هو عصر التكتلات البشرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والإعلامية ، ولهذا دأبت دول الإتحاد الأوروبي على السعي الحثيث لجمع كلمتها ولملمة صفوفها استعداداً للمرحلة القادمة من صراع الأمم ودخول العهد الأوروبي الجديد وسط الأمواج العالمية المتلاطمة هنا وهناك في قارات العالم ومحيطاته وبحاره
ولم تستطع أجهزة الاتحاد الأوروبي القيام بدور دولة أو إمبراطورية واسعة النطاق ، بل هي عبارة عن شكل من أشكال الكونفدرالية لا الفيدرالية الموحدة .

وربما استطاع الاتحاد الأوروبي في المستقبل توحيد جميع الأمم والشعوب والقوميات الأوروبية المتناقضة لغة ومصالح اقتصادية وثقافية؛ فقد استطاع توحيد العملة الأوروبية (اليورو) وإلغاء العملات الصغيرة المتعددة ، ووضع علم خاص لهذا الاتحاد ، وفي حالة تمكنه من التوحيد شبه الكلي فإنه سيشكل خطراً داهماً على الأمم الأخرى في جميع قارات العالم .

ويشكك البعض في إمكانية تمكن الاتحاد الأوربي من توحيد الشعوب والقوميات الأوربية بسبب استذكار الأحقاد والضغائن والمكائد والحروب الماضية والحالية وربما اللاحقة . فلا يمكن للأمم الأوروبية أن تنصهر في بوتقة واحدة ، لتكون تجمعاً بشرياً متجانساً في الأعراق واللغات والتاريخ والمصير والمستقبل.

وإذا كانت هناك عوائق كثيرة تقف في سبيل توحيد الشعوب والقوميات الأوربية بسبب تباين تلك الشعوب اقتصادياً وثقافياً ولغوياً

وتاريخياً ، وبسبب تاريخ الحروب والأحقاد المكائد الطويل فإن فرصة تكوين اتحاد عربيّ أكبر فجميع الشعوب العربية موحدة جغرافياً وتاريخياً ودينياً ولغوياً وربما ثقافياً كذلك بفضل القوة الناعمة المصرية ، وربما العائق والوحيد هو التفاوت الاقتصادي بين الشعوب العربية ويمكن توحيد العملة وإقامة سوق عربية مشتركة وجيش عربي موحد إذا صلحت النوايا وسعى الحكام العرب حثيثاً لهذه الوحدة .

وبعد الحديث عن الصراع الفكري بين دعاة القوميَّة العربيَّة والوطنيَّة المصريَّة نتحدَّث عن الاتجاه الرابع من اتجاهات النهضة المصريَّة .

***

دعاة العلمانية والأورمتوسطيَّة

نشأة الاتجاه العلماني الأورمتوسِّطي ودعاته

الاتجاه الرابع : الاتجاه العلماني الأورمتوسِّطي ودعاته ينظرون إلى كل ما يفعله الغرب المتقدِّم نظرة تقديس فإذا كان الغرب قد نبذ دينه فتقدَّم فعلينا أن نفعل مثلهم لكي نتقدَّم ، فالدين ، نص مقدس واجتهادات العلماء ، كان السبب في تخلُّف المسلمين وهو العائق دون التقدُّم ، كما أن العقليَّة المصريَّة عقليَّة أورمتوسِّطيَّة وخير لنا التفاني في الغرب الأوربي والاندماج فيه عن الارتباط بالبلاد العربيَّة ؛ فاتصالنا بأوربا هو أساس نهضتنا الحديثة بينما الارتباط بالعرب هو أساس تخلفنا ورجعيَّتنا، كما أن العقليِّة المصريِّة عقليَّة أورمتوسِّطيَّة وليست عقليَّة عربيَّة ، والاتصال بأوربا لم ينقطع تأثيراً وتأثُّراً منذ الفراعنة إلى اليوم وهو دائماً نافع ومفيد لنا .

وجُلُّ دعاة العلمانيَّة والأورومتوسِّطيَّة من أبناء البعثات العلميَّة التي أرسلها محمد على إلى أوربا لتحصيل العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة ، ومن أبناء المدارس الحكوميَّة التي أشرف على تعليهم إما أجانب لقَّنوهم حب الغرب كما لقَّنوهم علومه أو مصريون فتنوا بالغرب وعلومه.

إن هُويَّة مصر المتوسِّطيَّة خاصة في جوانبها الثقافيَّة ظلَّت مثاراً للجدل والأخذ والعطاء بين فريقين يرى أحدهما أن انتماء مصر إلى المتوسِّط، وبالتالي إلى أوروبا هو الخير، حيث يمكن لمصر أن تحتذي خطوات أوروبا في النهضة والتقدُّم في كافة المجالات وأن انتماء مصر للمتوسِّط هو انتماء طبيعي غير مفتعل ، وبين فريق آخر يرى أن انتماء مصر للمتوسِّط وللثقافة المتوسِّطيَّة التي يغلب عليها الطابع الأوروبي . على الأقل في الوقت الحديث . إنما هو طمس لهُويَّة مصر وشخصيَّتها ودورها العربي / الإسلامي فمصر ظلَّت دائماً حصن العروبة، وحامية الإسلام والمسلمين، وهى مفتاح نهضة الوطن العربي فكيف تتخلَّى عن كلِّ ذلك وتبحث عن ذاتها في المتوسِّط باتجاه أوروبا؟ لا يشكُّ أحد في إخلاص الفريقين، وأن كلَّ فريق يريد الخير لوطنه ولكلِّ منهما حججه ودارت حوارات ومناظرات فكريَّة ثقافيَّة عديدة لعل أهمها ما عرف بحوار الثلاثينيات بين طه حسين وساطع الحصري .

حوار طه حسين و ساطع الحصري حول متوسطيَّة مصر

أما عن الدكتور طه حسين، فهو من أبرز من دافعوا عن هُويَّة مصر المتوسِّطيَّة فدعا إلى أن تتَّجه مصر إلى الشمال عبر مياه المتوسِّط، إلى أوروبا لتأخذ بأسباب التقدُّم والحضارة التي شهدتها أوروبا والتي كانت في ذروة قوتها في القرن التاسع عشر والنصف الأوَّل من القرن العشرين وفى كتابه مستقبل الثقافة في مصر (١٩٣٨) دافع طه حسين عن هذا الاتجاه باعتباره الطريق الصحيح نحو التقدُّم والنمو والرقى .

كانت قناعة د. طه حسين هي أنَّ العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنَّما يتأثَّر بالبحر الأبيض المتوسِّط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر المتوسِّط .

كان الطرف الآخر في حوار الثلاثينات هو ساطع الحصري (١٨٨٠ ـ ١٩٦٨) الذي كرَّس حياته داعياً ومبشراً بالوحدة العربيَّة ساعيّاً إلى إيقاظ الشعور القومي العربي، كما قام بتنفيذ ودحض آراء ومزاعم المعارضين لتلك الفكرة ومن المؤكَّد أن فكرة هُويَّة مصر المتوسِّطيَّة قد أزعجت الحصري فلم يُخْفِ الحصري معارضته القويَّة لدعوة طه حسين لانتماء مصر المتوسِّطي حضاريّاً وثقافيّاً فنجد الحصري يقول: " ما هي قيمة هذه النظريَّة من الوجهة العلميَّة ؟ هل يوجد حقيقة شيء يستحقُّ التسمية باسم ثقافة البحر الأبيض المتوسِّط ؟ أو حضارة البحر المتوسِّط ؟ وإذا كان ذلك موجوداً حقيقة، هل يستحقُّ العناية والاهتمام ؟ وهل يترتب على أبناء هذا الجيل أن يلتفتوا إلى تلك الثقافة أو الحضارة، وأن يتمسَّكوا بها ويعملوا لأجلها ؟

حقيقة الأمر، أن طه حسين لم يكن هو الوحيد الذي دافع عن شخصية مصر المتوسطية وهُويَّتها التي تأتى جذورها . في تشكيل عقلها . من البعد المتوسطي، إنما كان طه حسين هو أوَّل من أثار الموضوع في شكل ثقافي فكرى أدبي فارتفعت معه الفكرة والنقاش قدر منزلة طه حسين في الحياة الثقافيَّة الفكريَّة في الفكر والتراث المصري العربي ثم أن طه حسين قد ضمَّن أفكاره تلك في كتاب " مستقبل الثقافة في مصر " فأصبح بمثابة الكتاب العمدة الذي يُرْجَع إليه لمعرفة رؤية طه حسين

في هذا الموضوع المهم مع الأخذ في الاعتبار أن هذا الكتاب هو أساساً كتاب يوضِّح رؤية طه حسين للتعليم والثقافة في مصر وكيف يمكن لمصر أن تعلِّم أولادها وتثقِّفهم، ولعلَّ هذا هو أحد عوامل أهمية هذا الكتاب وسوف نناقش هذا الكتاب تفصيلاً فيما بعد .

د. حسين مؤنس ومتوسطية مصر

أما د. حسين مؤنس فقد رأى أن مصر لها دور ورسالة في البحر المتوسط، وأن مصر متوسِّطيَّة، وقدَّم هيكلاً لنظريَّة أن مصر ذات انتماء وتوجه متوسِّطي تقوم على ثلاث حقائق :

الحقيقة الأولى: أن تاريخ مصر هو تاريخ البحر المتوسِّط، فإذا استقرَّت أمور مصر وازدهرت انعكس ذلك على البحر المتوسِّط فتزدهر وتنتعش موانيه، وأن الإسكندرية قد ساهمت بشكل خاص في ربط شرق المتوسِّط بغربه وشماله بجنوبه .

الحقيقة الثانية: أن تاريخ مصر متأثِّر بالبحر المتوسِّط بشكل دائم قد لا نشعر بهذا التأثير أحياناً أو يخيَّل لنا أنه يضعف أو يتلاشى ولكنه قائم وفعَّال بشكل دائم حتى في العصور التي ساد فيها السكون موانئ مصر كالعصر التركي مثلاً، لم تنقطع حركة التجار والسفن بين مصر والشام واليونان .

الحقيقة الثالثة : أن حياة مصر لا تستقيم إلا إذا كانت على صلة بالبحر المتوسط فالعنصر البحري داخل في كيانها مشترك بنصيب كبير في تكوينها، وأن فترات انقطاع الصلة بين مصر والبحر

المتوسِّط، كانت فترات سكون وخمول، ويخلص إلى القول بأن لمصر فراغاً في هذا البحر عليها أن تملأه، ولها رسالة في حوضه عليها أن تقوم بها، وعليها مسئولية عن حضارته لابد أن تنهض بها .

أما الدكتور جمال حمدان فيؤكد في كتابه . نحن وأبعادنا الأربعة . أن البحر المتوسِّط بُعْدٌ من أبعاد التوجه المصري . فالنيل إذ ينحدر شمالاً ليصبَّ فيه، والحياة المصريَّة إذ تجرى مع النيل نحوه، فإن مصر برمتها تتوجَّه إليه وتتطلَّع نحو الشمال . ويرى جمال حمدان أن مصر متوسِّطيَّة أكثر مما هي مداريَّة أو أفريقيَّة أما عن العلاقة بين المتوسِّط وأوروبا فيخلص جمال حمدان إلى أن البحر المتوسِّط يستمدُّ أهميته الفائقة في توجهنا من أنها هي أوروبا بالذات التي تقع وراءه، ومن ثَمَّ، فإن مفهوم المتوسِّط لا يمكن أن ينفصل عن مفهوم أوروبا وليس مجرَّد صدفة أن كلَّ من اتَّجه منَّا إلى البحر المتوسِّط، أو دعا إلى الاتجاه إليه، انتهى إلى أوروبا .

ميلاد حنَّا و الأعمدة السبعة لشخصيَّة مصر

والواقع أن معظم الكتابات التي تحدَّثت عن شخصيَّة مصر . أن لم تكن كلها . قد تحدَّثت عن البعد المتوسِّطي أو أثر البحر المتوسِّط على مصر فالدكتور ميلاد حنَّا في كتابه الأعمدة السبعة للشخصيَّة المصريَّة. اعتبر أن العامود السادس في تلك الشخصيَّة هو انتماء مصر للبحر المتوسِّط ويعتقد أن انتماء مصر إلى البحر المتوسِّط قد وصل إلى نقطة تحوُّل جديدة في العصور الحديثة مع الحملة الفرنسيَّة على مصر عام ١٧٩٨م والتي كان لها معان ثقافيَّة بعيدة المدى، وما أعقب ذلك

من إرسال محمد عليّ للعديد من البعثات إلى أوروبا كمقدِّمة لنقل مصر إلى بداية عصر النهضة كما يرى أن طه حسين كان فاتحة لمدرسة ليبراليَّة كاملة من المتأثرين بانتماء مصر للبحر المتوسِّط وجزء من حضارته وحيث أكمل المشوار من بعده توفيق الحكم وحسين فوزى ولويس عوض وحسين مؤنس وآخرون غيرهم .(١)

ونحن كمصريين جنساً مسلمين أو مسحيين ديناً عرب لغة لسنا منغلقين على كلِّ ما هو جديد مفيد " الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا " .

وإن كان دعاة السلفيَّة اللا أصوليَّة ييمِّمون وجوههم قِبَل القديم ويعتبرون أن كلَّ فهم جديد للدين بدعة ضالة وأن الوقوف عند حدود ما أبدعه السالفين نجاة ؛ وأن السابق لم يترك للاحق شيئاً .

فإن العلمانيين الأورمتوسِّطين ييمِّمون وجوههم قِبَل الغرب ويعتبرون كلَّ فهم قديم للدين تخلُّف ورجعيَّة وأنه لا إيمان إلا بما يقوله العلم ، المادي ، والحكمة تقضى ، في نظرهم ، بأن نأخذ من الغرب فلسفته وفنونه وآدابه كما نأخذ علمه ومخترعاته أن نأخذ أفكار دارون ، ونيتشة، وماركس ، سارتر ، وفرويد ... كما نأخذ علوم جاليليو ونيوتن وأينشتين ومندل ...

وإذا كانت حُجَّة دعاة السلفيَّة اللا أصوليَّة أن المسلمين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه في أزهى عصورهم إلا بفضل تمسُّكهم بالدين ،

---

(١) أسامة فاروق مخيمر " البحر المتوسط في السياسة المصرية - نقد واستشراف لقرن جديد " موقع الأهرام الرقمي ١ يناير ٢٠٠٠

واعتقادهم أن التمسُّك بأقوال وآراء بعض السلف سيحقِّق لهم ما تحقَّق لأسلافهم من ظهور على سائر الأمم . فإن العلمانيين الأورمتوسِّطين يقولون إن أوربا ما تقدَّمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت في أسباب العلم المادي .

والحق أن كلا الفريقين مصيب ومخطئ ، فنعم تقدَّم المسلمون عندما تمسَّكوا بالإسلام لكن فهمهم للإسلام يختلف عن فهم دعاة السلفيَّة اللا أصوليَّة .

فقد فهموا الإسلام على أنه نظام شامل دين ودنيا ، مأثور ومعقول ، إيمان وعمل لا كما فهم دعاة السلفية اللأ أصوليَّة على أنه نقلٌ لا عقلَ فيه ومأثورٌ لا فقهَ فيه وثباتٌ لا تطورَ فيه !!

كما أنَّ أوربا ما تقدَّمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت في أسباب العلم المادي وهذا حقٌّ ، ولكن الحقَّ أيضاً أن الدين الذي طرحته أوربا والذي كان عائقاً للتقدم العلميِّ والذي حكم رجال دينه على جاليليو بالهرطقة والكفر واضطروه إلى العدول عن نظرياته العلميَّة ! ليس هو دين الإسلام الذي يجعل العلم ، بمفهومه الشامل ، فريضة وأنه لا تعارض بين الفهم الصحيح للدين والحقائق العلميَّة .

***

الخاتمة

مائة عام كاملة أو يزيد والتيارات السياسيَّة والدينيَّة في مصر تتصارع حول الهويَّة المصريَّة والأهداف الغائيَّة والوسائل المنهجيَّة ولم تصل إلى مفهوم يجمع كلَّ المصريين حول إستراتيجيَّة موحَّدة تنقذهم من حالة الصراع التي تهدِّد وحدة المجتمع وسلامته وتنذر بعواقب وخيمة وانقسامات حادَّة ظهرت بوادرها بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ ، وازدادت حدتها بعد ٣ يوليو ٢٠١٣.

وبالرغم من الاختلافات الظاهرة بين هذه الاتجاهات الأربعة المتصارعة ، التي سبق ذكرها ، فإنها غير متناقضة فيما بينها فهي أربعة أوجه لحقيقة مصر الواحدة، وما الحساسية المفرطة التي كانت ترتبط بالخلاف بين هذه الاتجاهات الأربعة إلا عَرَض من أعراض النظرة السطحيَّة المجتزئة لتاريخ مصر العريق ولشخصيَّة مصر الضاربة في أعماق هذا التاريخ المستمرَّة عبر العصور .

والحقيقة أن ليس ثمَّة تعارض بين الشخصيَّة المصريَّة ، والعقيدة الإسلاميَّة ، واللغة العربيَّة ، والمنجزات الحضاريَّة الأوربيَّة ، إنما ينشأ التعارض عند الخطأ في فهم الفرق بين الحقبة الفرعونيَّة وتاريخ الأمَّة المصريَّة ، والفرق بين الشخصيَّة العربيَّة والشريعة الإسلاميَّة ، والفرق بين الشخصيَّة الأوربيَّة ومُنْجزاتها الحضاريَّة.

والعجيب أن يقع في هذا التعارض كبار المفكرين المصريين من أمثال : طه حسين، سلامة موسى ، توفيق الحكيم ، جمال حمدان ، لويس عوض ، حسين

فـوزي ، يوسـف القرضـاوي ، ومحمـد عمـارة وغيـرهم ممـن رأوا أن الشخـصيَّة المـصريَّة : فرعونيَّـة مـسيحيَّة فحـسب ، أو عربيَّـة إسـلاميَّة فقـط ، أو غربيَّـة أورمتوسطيَّة بلا ريب .

والحقيقة أن الشخصيَّة المصريَّة القديمة التي أبدعت الحضارة المصريَّة على غير مثال سابق كنهر النيل العظيم يجري منذ فجر التاريخ لا يتغير مساره ولا تنحرف وجهته ، وإن غذَّته روافد كثيرة ، وأعاقته جنادل وحشائش ضارة ، لكنه لم يضلَّ طريقه أبداً ولم ينضب عطاؤه قط ولم يغيِّر طعمه السلسبيل شيء ، وكذلك الشعب المصري العظيم عرف ثقافات كثيرة غذَّته ، وتعرَّض لغزوات كثيرة أعاقته وكبَّلته، ولكنه بقي كما هو لم يغيِّر مساره ولم يتخلَّ عن سماته الأصيلة ؛ فقد غزا كلَّ من غزوه وغيَّر سماتهم ولم يغيِّروه ، ومصَّرهم جميعاً ولم يستطيعوا أن يغرِّبوه أو يشرِّقوه .

إن الشخـصيَّة المـصريَّة بفـضل قوَّتهـا ورسـوخ سـماتها وأصـالتها قـادرة علـى استيعاب الثقافة الوافدة إليها وهضمها وصبغها بصبغتها المصريَّة .

***

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

٣- المدارس السلفية،جدليَّة النقل والعقل والمصلحة. دار زهور المعرفة والبركة

٤- الفوائد الجمة في تفسير جزء عمَّ . " " " " " " " " " "

٥- عبقرية محمد للعقاد ، مع ضبط وتخريج الأحاديث النبوية ، ومناقشة آراء العقاد الدينية وذكر مفتاح شخصية خير البرية . دار زهور المعرفة والبركة

٦- ضبط وتخريج الأحاديث النبوية لكتاب " على هامش السيرة لطه حسين" مع مناقشة أفكار الكاتب واتجاهاته الدينية. دار زهور المعرفة والبركة

٧- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع. دار زهور المعرفة والبركة

٨- أبو بكر الصديق ، ومنزلة الصديقية دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة نحو خطاب ديني جديد

١- مناقشة معاصرة لقضايا المرأة المسلمة . دار زهور المعرفة والبركة

٢- في العقيدة والشريعة والأخلاق . " " " " " " " " " "

٣- حوارات مفتوحة مع تلميذتي الصريحة . " " " " " " " " " " " "

سلسلة فصول من تاريخ مصر المعاصر

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو . دار زهور المعرفة والبركة

٣- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية " " " " " " " " " " " "
٤- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي " " " " " " " " " " " "
٥- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي " " " " " " " " " " " "
٦- أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء " " " " " " " " " " " "

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الإستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .

دار هبة النيل العربية

٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي . دار الإبداع للصحافة والنشر
٣- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن. " " " " " " " "
٤- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة " " " " " " " ""
٥-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية . " " " " " " " " " " " "

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ .

دار زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . " " " " " " " " " " " "

كتب عن الحضارة المصريَّة

١- حضارات مصر ونهضاتها . دار زهور المعرفة والبركة
٢- لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين فمن نكون ؟ " " " " " " " " " " " "
٣- البحث عن شخصية مصر الحقيقية دار نوبل للنشر والتوزيع

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) دار زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٥- شهادات رموز ومعالم مصرية حديثة على بطولات مصرية مجيدة . (قصص مصورة للنشء والشباب) دار زهور المعرفة والبركة

٦- طرائف ونوادر مدرسين معاصرين . " " " " " " " " " " " " " "

مذكرات أديب مغمور (رواية) " " " " " " " " " " " " " " " "

٧- أحلام مواطن متفائل . " " " " " " " " " " " " " "

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (٨ قصص) دار زهور المعرفة والبركة
* السلسلة النفيسة في ثورات مصر الحديثة (٥ قصص) " " " " " " " " " " " " " "
* سلسلة لغز الحضارة المصرية القديمة (٨ قصص) " " " " " " " " " " " " " "
* سلسلة منجزات الحضارة المصرية القديمة (٦ قصص) " " " " " " " " " " " " " " " "

توجد كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة على مستوى في العالم، ومعظم الجامعات العربية، ومعظم مدارس وجامعات مصر، وكتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية، والأجنبية والمواقع الالكترونية .

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه "متى يثور المصريون".

-قررت دولة قطر قصة " وردة المدرسة " على الصف الثالث الابتدائي .

التليفون المحمول: 01226406489

البريد الالكتروني: yuness2005@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

محتوى الكتاب

الموضــوع | الصفحة

دعاة الوطنيَّة المصريَّة

دعاة العلمانيَّة والأورمتوسطيَّة

***